

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير

محمود الجزار

المرآة فلاح مصر المملوكية

دكتور أحمد عبد الرازق

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
بكلية الآداب جامعة عين شمس.



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٩

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب المهم عن «المرأة في العصر المملوكي، الذي ألفه الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرازق، أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية الآداب جامعة عين شمس.

وكان قد سبق لهذه السلسلة أن نشرت كتاب: المرأة في مصر في العصر الفاطمي، للدكتورة ناريمان عبد الكريم في العدد ٦٦، وهو رسالتها للماجستير، وها هو كتاب الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرازق يصدر ليمتد بتاريخ المرأة في مصر الإسلامية إلى العصر المملوكي.

وموضوع المرأة في المصادر التاريخية في العصر الإسلامي من الموضوعات الشائكة والنادرة، بسبب التقاليد الشرقية المحافظة، لا سيما ما يتعلق بالحياة العائلية والمنزلية والاجتماعية، الأمر الذي قصر الكلام عن المرأة

فى العصر المملوكى فى هذه المصادر على نساء أفراد الممالك دون غيرهم . وهو ما تطلب بهذا مضاعفا من الباحث للحصول على مادته التاريخية من مختلف المراجع التاريخية والجغرافية والأدبية والتراجم .

وقد استطاع الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرزاق رسم صورة تاريخية مماثلة للمرأة فى العصر المملوكى - الذى يعد أزهى عصور مصر الإسلامية - غطت جوانب حياتها فى هذا العصر الذى امتد قرنين ونصف من الزمان (١٢٥٠ - ١٥١٧) .

فتناول هذا الكتاب المهم مكانة المرأة فى هذا العصر المملوكى ، ودورها فى الحياة العامة ، وبين مدى ما وصل إليه سلطانها ونفوذا ، وتطرق الى موضوع الزواج ، والأسرة ، وزينة المرأة ، كل ذلك فى أسلوب علمى جزل وسهل ، يهين للقارئ التغلغل الى أحشاء المجتمع المملوكى فى ذلك العصر بيسر واستمتاع .

وأملئ أن يصادف هذا الكتاب ما صادفته كتب هذه السلسلة التاريخية من تقدير واهتمام القراء ، وأن يجدوا فيه ما ينشدون من فائدة ومتعة .

والله الموفق

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

ان كل ما كتبه الرجل عن المرأة يجب أن يؤخذ بشيء
من الحذر • لقد كان الرجل الخصم والحكم •
« بولان دى لابر »

مقدمة

يعد عصر سلاطين المماليك من أزهى عصور تاريخنا القومي ، ولا زالت آثاره المادية ان لم تكن الروحية - شاخصة بين ظهرانينا الى اليوم . فالدولة المملوكية التي عاشت زهاء قرنين ونصف من الزمان (٦٤٨ - ٩٢٣ / ١٢٥٠ - ١٥١٧) ، تعد من أغنى الدول بسلاطينها وحكامها الأقوياء أمثال بيبرس والمنصور قلاوون وابنه الناصر محمد وغيرهم من السلاطين الذين شيدوا امبراطورية شاسعة الأرجاء ممتدة الأطراف ، استطاعت صد المغول ، ووقفت في وجه الصليبيين . وخطب ودها ملوك أوروبا وآسيا . وانتقل في عهدها مقر الخلافة العباسية من بغداد الى القاهرة ، وطبعت أيضا نظام البلاط المملوكي بطابع خاص لم يكن موجودا من قبل ، ونظمت الدواوين وحددت اختصاصات كبار الموظفين . وأسست أول جيش ثابت في مصر في العصور الوسطى ، وحفل عهدها بقضاة ضربوا أحسن الأمثال في الاعتداد بالرأى والذود عن الكرامة ، ونساء صرن يدبرن أمور الدولة من لاية وعزل .

غير أن المكتبة العربية لا زالت تخلو من المؤلفات الحديثة التي تبحث عن دور المرأة ومكاتها على عصر سلاطين المماليك ،

وذلك على الرغم مما امتاز به هذا العصر من كثرة المصادر والمراجع التي تبحث في مختلف العلوم والفنون . ولعل مرجع هذه الندرة الى أن البحث في هذا الفرع من الدراسات الانسانية المتعلقة بالنواحي الاجتماعية ليس بالأمر السهل اليسير ، خاصة وقد لمسنا أثناء اعدادنا لهذه الدراسة مدى الصعوبة التي يمكن أن تواجه الباحث في هذا الفرع من الدراسات ، اذ كانت الصعوبة الأولى التي عرضت لنا هي تحديد أبعاد الموضوع مع ارتباط دور المرأة في المجتمع المصرى بشتى نواحي النشاط البشرى في تلك الفترة . هذا بالإضافة الى قلة المادة المتعلقة بنساء هذا العصر وتشتتها في بطون المصادر والمراجع المعاصرة خاصة فيما يتعلق بالمرأة المصرية وحياتها . ويبدو أن منشأ هذه الصعوبة مرده الى أن البحث في الحياة الاجتماعية في أى عصر من العصور المصرية الاسلامية يرتبط الى حد كبير بالتقاليد الشرقية ، وما تتصف به هذه التقاليد من محافظة شديدة ، لا سيما فيما يتعلق بالأحوال العائلية والمنزلية ودور المرأة في المجتمع وربما نظر كتاب عصر المماليك الى هذه النواحي على أنها أشياء عادية مألوفة للجميع ومن ثم فلم يعنوا بتسجيلها حرصا على عدم اضاعة وقتهم . هذا بالإضافة الى ما عرف به التاريخ في ذلك الوقت من أنه كان ريب السلاطين والامراء والقصور والمدن لهذا فليس

بعجيب أن تفيض المراجع المعاصرة بأخبار نساء أفراد الممالك دون غيرهم من نساء هذه الفترة وعلى هذا فقد تطلب منا التأريخ لحياة المرأة في مصر المملوكية - دراسة كل ما وصلت اليه أيدينا من مؤلفات ومراجع معاصرة في مختلف العلوم والفنون ، كالتاريخ والتراجم والخطط والجغرافيا والفقه والتضوف والأدب ، وغيرها من المعارف العامة وكتب الأدب الشعبي من قصص وبلاليق وأمثال وتمثيلات وغيرها . وثمة نوع من المراجع أوليناه عناية خاصة هو القصص المصري من ألف ليلة وليلة ، الذي كثيرا ما أمدنا بصورة صادقة عن دور المرأة في تلك الفترة ، وإن كثرت في هذا النوع من القصص بعض الألفاظ البذيئة مما تستحى منه الأذن والعين . على أن هذه العيوب كلها لا تقلل إطلاقا من أهمية ذلك التراث الضخم الذي تتضح من خلاله شخصية المرأة كزوجة وكأم .

هذا بالإضافة الى عقود الزواج وغيرها من الوثائق التي وصلتنا من هذا العصر لما جاء بها من معلومات على جانب عظيم من الأهمية ، لا غنى عنها للباحث في هذا الفرع من الدراسات الانسانية لما احتوت عليه في بعض الأحيان من قوائم الجهماز التي تكشف لنا عن الكثير من عادات وتقاليد هذا العصر فيما يتعلق بالملابس وغيرها من الأشياء التي كانت تعطى للعروس . وتترأى هذه العادات والتقاليد أيضا في ملحوظات

الرحالة الشرقيين والأجانب الذين زاروا مصر في العصر المملوكي ، لأن كثيرا من هذه العادات قد تبدو في أعين المعاصرين من أهل البلاد شيئا عاديا مألوفا ، على حين تظهر غريبة بالنسبة لأولئك الرحالة فتعرضوا لها بالوصف الممتع وأحيانا بالنقد المفيد كما عودنا الفقيه المغربي ابن الحاج العبدري الذي أقام بمصر على عهد سلاطين المماليك ، والذي كثيرا ما حمل حملة شعواء على عادات ونقايد نساء عصره من المصريات •

بيد أننا لم نقصد من تعداد الصعاب التي واجهتنا أثناء اعدادنا لهذا الكتاب أن نبين للقارئ قدر هذا الجهد الذي بذل في التأريخ للمرأة في مصر المملوكية فهذا أمر متروك لأفقه وسعة تقديره ، وانما قصدنا أن نلتمس منه سعة الصدر ورحابة الافق فيما عسى يظنه موضعاً للنقد •

ونسأل الله أن نكون قد وفقنا في هذه المحاولة المتواضعة لاعطاء صورة صادقة ، واضحة المعالم لدور المرأة ومكاتها على عصر سلاطين المماليك ، والا فحسبنا أن نكون قد وجهنا النظر اليها والى الدور الهام الذي قامت به في ذلك العصر •

العجوزة في ٢٥ نوفمبر ١٩٧٤

أحمد عبد الرازق

الفصل الأول

مكانة المرأة في المجتمع

مكانة المرأة في المجتمع

لا شك في أن رقى أى مجتمع من المجتمعات يقاس دائماً بمدى تقدير ذلك المجتمع للمرأة ، واستجابته لمنحها حقوقها كاملة بوصفها الشريكة الأولى للرجل وساعده الأيمن في تحمل أعباء الحياة ، فالمرأة هي الزوجة التي تدبر شؤون الأسرة التي تعتبر الخلية الأولى للمجتمع ، وهي الأم المسؤولة قبل غيرها عن تنشئة المواطن الصالح والزوجة الصالحة •

حقيقة أن الشريعة الإسلامية قد فرقت بين الرجل والمرأة في بعض الحقوق — مثل حق الارث ومسألة الشهادة على الديون والمواثيق — الا أنها أعطت للمرأة حقها كاملاً في المجتمع الاسلامى وحققت لها العدالة في المعاملة بعد أن رفع عنها القرآن الكريم لأول مرة لعنة الخطيئة الأبدية ووصمة الجسد المرذول ، فكل من الزوجين قد وسوس له الشيطان واستحق الغفران بالندم والتوبة غير أن مركز المرأة من الناحية القانونية في التاريخ الاسلامى كان شيئاً ، ومركزها العملى في الحياة اليومية كان شيئاً آخر ، فقد أسهمت المرأة بدور بارز في مختلف

نواحي النشاط في الاميراطورية الاسلامية وظهر هذا الدور
أوضح ما يكون في مصر على عصر سلاطين المماليك أى في
الفترة الممتدة من سنة ٦٤٨ الى سنة ٩٢٣ هجرية .

تمتعت المرأة في ذلك العصر بقسط وافر من الاحترام ،
سواء كان ذلك داخل طبقة المماليك الحاكمة أو عند سائر
طبقات الشعب ، فالمماليك نظروا الى نساءهم نظرة تفيض
بالاجلال والتقدير تجلت في تلك الألقاب العديدة التي خصت
لهن مثل ، بركة الدولة وبركة الملوك ، والسلاطين ، وجمال
النساء ، والجهة الكريمة ، والجهة الشريفة ، وذات الحجاب
المنيع ، وخاتون ، وخوند ، والجليلة ، والدار ، والدره ،
والستارة ، والستر الرفيع ، وسليمة الملوك والسلاطين ،
والشريفة ، والعفيفة ، وغصن الاسلام ، وفرع الشجرة الزكية ،
وقرة عين الملوك والسلاطين ، والمحجبة ، والمصونة ، والمعظمة ،
وغيرها من الألقاب^(١) وعبارات التبجيل التي تبدو بوضوح
في مكاتبات السلاطين لبناتهم وزوجاتهم وأخواتهم^(٢) .

(١) انظر الفصل الخاص بألقاب المرأة في دراسنا عن المراه

على عصر سلاطين المماليك :

La Femme au temps des Mamlouks en Egypte, Le Caire, 1973,
pp 89-120.

(٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٧ ، ص ١٦٦ .

ولم يضمن سلاطين المماليك على نسائهم بالمال والمتاع ،
اذ يحدثنا خليل بن شاهين في كتابه « زبدة كشف الممالك »
أننا « لو أردنا وصف ملبوس كل منهن وتجميل بيوتهن لاحتجنا
الى عدة مجلدات »^(٣) . وحسبنا أن احدى زوجات السلاطين
لما حصرت ثروتها بعد وفاتها بلغت أكثر من ستمائة ألف
دينار^(٤) ، أما خوند زهرة ابنة السلطان الناصر محمد بن
قلاون وزجة الأمير طاز فقد خلفت ثروة طائلة تحدثت عنها
المراجع المملوكية ، من جملة قبقاب مرصع بلغت قيمته
أربعين ألف درهم ، ثمنها ألفا دينار مصرية^(٥) ، ويروى أيضا
أحد المعاصرين أن موجود خوند جلبان احدى زوجات
السلطان الأشرف برسباي قدر عند وفاتها بحوالى سبعين ألف
دينار^(٦) .

وقد اعتاد بعض سلاطين المماليك أن يستصحبوا معهم
حريمهم في نزعاتهم الخلوية وعندئذ يخرج حريم السلطان على
الخيول في محفات مغطاة بالحريز يحيط بهن سائر الأمراء

١١

(٣) ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ١٢١ .

(٤) ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ١٢١ .

(٥) المقربرى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٨١٤ ؛ ابن نعرى بردى ،

النجوم ، ج ٥ ، ص ١٠٤ .

(٦) ابن حجر ، أنباء الغمر ، ج ٢ ، ورقة ٢١٥ ؛ السخاوى ،

الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ١٧ .

والماليك والخدام بعد أن يطرد سائر الناس من الطرقات وتغلق الحوائيت . اذ يروى المقرئى أن السلطان الناصر محمد ابن قلاوون اصطحب معه فى احدى المرات الحريم من القلعة الى الجيزة ، فطرد سائر الناس من الطرقات ، وغلقت الحوائيت ، ونزلت خوند طغاي زوجة السلطان ، والأمير أيدغمش ماش يقود عنان فرسها بيده وحولها سائر الخدام مشاة منذ ركبت من القلعة الى أن وصلت الى النيل فعدت فى الحراقة (٧) .

واذا خرجت زوجة السلطان أو أمه للحج فانه يجهزها جهازا عظيما فتخرج فى برج كبير وعلى محفتها العصائب السلطانية وتضرب الطبول والكوسات حولها ويتبعها « قطار » من الجمال المحملة بكل أصناف الكماليات ، فى حين يأمر السلطان عددا كبيرا من الأمراء بمصلحتها فى الطريق ولندع المؤرخ ابن اياس يصف لنا موكب خوند فاطمة زوجة السلطان الأشرف قايتباى عند خروجها عام ٨٧٩/١٤٧٤ لأداء فريضة الحج « وفى هذه السنة حجت خوند فاطمة زوجة السلطان وهى ابنة العلاى على بن خاص بك ، فكان يوم خروجها الى السفر يوما مشهودا ، وكان لها الموكب حافل ، فخرجت فى محفة

(٧) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ ؛ العينى ، عقد الجمان ، ج ٣٢ ، ورقة ٣٨٥ ؛ ابن تفرى بردنى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٧٤ .

زركش برصفيات لؤلؤ مرصعة بلخش وفيروز، وخرج صحبتها
أخت السلطان في محفة زركش أيضا وخرج معها خمسون حملا
من المحابر المخمل الملون ومشيت قدام محفتها بالرملة جميع
أرباب الدولة وهم : كاتب السر ، وناظر الجيش ، وناظر
الخاص ، وغير ذلك من المباشرين ، ومشى الزمام ، ومقدم
الماليك ، وأعيان الخدام بأيديهم العصي ، وقدامها من الحداة
أربعة منهم ابراهيم بن الجندى المغنى ، وأبو الفوز الواعظ ،
وغیر ذلك ، فكان لها تجمل زائد قل أن يقع لأحد من الخوندات
مثلا فعد ذلك من النوادر^(٨) .

وعند عودة الحاجة الى مصر بعد قضاء شعائر الحج
كثيرا ما يخرج السلطان لاستقبالها عند بركة الحاج خارج
القاهرة أو يحتفل بقدمها احتفالا عظيما ويسرع الأمراء بتقديم
الهدايا الثمينة اليها^(٩) ، ويكفيها أن نشير هنا الى الاحتفال
الذى أقيم بمناسبة عودة خوند زينب زوجة السلطان اينال من
الحجاز الشريف ، اذ مشى الأمراء أمام محفتها حتى طلعت الى
القلعة والجميع مشاة أمامها وحمل الأمير فيروز الزمام على

(٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٥٦ .

(٩) المقرئى ، السلوك ج ٣ ص ١٨١ ؛ ابن اياس ، بدائع

الزهور ، ج ١ ، ص ٢٢٦ ؛ محمد مصطفى ، صفحات لم تنشر
من بدائع الزهور ، ص ١٤٥ .

رأسها القبة والطير وفرشت لها الشقق الحرير من باب الستارة الى أن جلست على المرتبة بقاعة العواميد ونثر على رأسها خفائف الذهب والفضة ، ثم دخلت اليها التقادم من الأمراء والمباشرين وكان ما أهداه ناظر الخاص اليها قندورة مثلث ذهب ولؤلؤ وريش بلغ مصروفها ما يزيد على اثنى عشر ألف دينار وهذا خارج عن بقية التقادم الأخرى (١٠) .

واذا سمع السلطان بمرض احدى زوجاته أو بناته فانه لم يكن ليتردد في معاودتها مرارا (١١) ، أما اذا وجد حالتها تستدعى تغيير الجو فانه يسمح لها بالنزول الى بولاق حتى تتمتع برؤية النيل «ويذهب عنها الوخم» (١٢) . وعندما يتم شفاؤها يحتفل بذلك احتفالا عظيما . فيتردد عليها أعيان الدولة من الأمراء والقضاة والأكابر للتهنئة ، ويجتمع عند بابها أرباب الزمور والطبول والملاهي ، وتعمل في النيل مرامي النفط والصواريخ ثم تعود خوند الى بيتها بالقلعة في موكب رائع وحولها المشاعل والشموع والفوانيس كما حدث لخوند زينب زوجة السلطان اينال ، اذ خرجت البنت من خدرها بسبب الفرجة

(١٠) محمد مصطفى ، صفحات لم ننس من بدائع الزهور ،

ص ٥١ .

Ahmad 'Abd ar-Rāziq, La Femme, p 4.

(١١)

(١٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

وكانت ليلة الاحتفال بشفائها في بولاق من الليالي المشهورة ،
ثم طلعت الى القلعة في محفة وحولها الخوندات والستات
وأعيان نساء الأمراء والمباشرين حيث أقيم لها مهم حافل هناك
دعى اليه أكابر الدولة وأعيانها (١٣) .

بيد أن مظاهر التكريم التى تستعت بها المرأة في مصر على
عصر سلاطين المماليك لم تقتصر فقط على حياتها بل كثيرا ما
امتدت الى ما بعد مماتها واتفالها الى العالم الآخر ، اذ تشير
المصادر المعاصرة ، أنه عند وفاة احدى زوجات السلطان أو
الأمراء فانها كانت تخرج في بشخانة زركتش (١٤) ويمنى أمامها
القضاة الأربعة والأمراء المقدمون وينزل السلطان والخليفة
وكل موظفى الدولة للصلاة عليها (١٥) ويعمل مهما عظيما ويكثر
السلطان أو الامير من توزيع الصدقات والأموال على روح

(١٣) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٢٢٦ - ٢٢٩ ؛
ابن اياس بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

(١٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٧٤ ؛ ج ٣ ،
ص ١٨ ؛ الجوهري ، انباء الهصر ، ورقة ١٧٠ ، ١٨٦ ب .

(١٥) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ١١٤ ؛
الجوهري ، انباء الهصر ، ورقة ١٧ ، ١٥٢ ، ١٨٦ ؛ ابن حجر ،
انباء الغمر ، ج ٢ ، ورقة ١١٤ ؛ المقربرى ، السلوك ، ج ٢ ،
ص ١٦٥ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢١٤ ؛ ج ٣ ،
ص ١٨ .

الفقيدة^(١٦) ، وفي بعض الأحيان كان يحتفل أيضا بأول جمعة تمر على وفاتها حيث يأمر السلطان بصنع مائدة حافلة يدعو إليها الخليفة والقضاة وأغلب الأمراء المقدمين وكذا قراء البلد قاطبة والوعاظ لآحياء الذكرى بآيات من القرآن الكريم ترحما على المتوفاة^(١٧) .

والواقع أن ذلك الاحترام الذي تمتعت به المرأة في عصر المماليك لم يقتصر على نساء السلاطين وأمرائهم ، اذ هناك من الشواهد ما يثبت أيضا احترام عامة الشعب المصري في ذلك العصر لنسائهم ، وخير شاهد على ذلك تلك الألقاب العديدة التي أطلقها الناس ، على نسائهم وبناتهم مثل ست الخلفاء ، وست التجار ، وست العلماء ، وست الفقهاء ، وست القضاة ، وست الناس ، وست الأجناس ، وست الوزراء ، وست العرب ، وست البنين ، وست العيال ، وست الأهل ، وست الخطباء ، وست الكل ، وست الستات ، وست الملوك ، وست الاعداء ، وست من يراها ... الى غير ذلك من الألقاب من باب « الفخر

(١٦) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ورقه ٣٠٤ ؛
ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٨ .

Wiet, Journal d'un bourgeois, II, pp. 29-30. (١٧)

والتزكية والنناء والتعظيم» على حد تعبير أحد كتاب ذلك
العصر (١٨) .

وإذا خرجت إحدى النساء الى الطريق وكان زوجها
مقتدرا فانه يحضر لها حمارا يقوده مكارى ويتبعها خادم (١٩) ،
الأمر الذى استرعى نظر بعض الرجال الأجانب الذين زاروا
مصر على عصر سلاطين المماليك (٢٠) ، ورغم قلة الاشارات الى
النساء وندرتهما فى المصادر المعاصرة فانا نجد كثيرا منها يعبر
عن الاحترام والتقدير . فالمقرئ يروى لنا كيف أن السلطان
الظاهر بيبرس « نزل من قلعة الجبل بالليل متنكرا وطاف بأنحاء
المدينة ليعرف أحوال الناس قرأى بعض المقدمين وقد أمسك
امراة وعرها سروالها بيده ، ولم يجسر أحد ينكر عليه فلما
أصبح السلطان قطع أيدي جماعة من نواب الولاة والمقدمين
والخبراء وأصحاب الرباع بالقاهرة لتهاونهم فى المحافظة على
نساء المدينة (٢١) . ويحدثنا أيضا ابن اياس كيف أن السلطان

(١٨) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢٣٨ ؛ سعيد
عاشور ، المجمع المصري فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٣١ .
(١٩) سيرة الظاهر بيبرس ، ج ٧ ، ص ٢٦ .
(٢٠) Schefer, Voyage magnifique, p. 211 .
(٢١) أبو الفضائل ، كتاب النهج السديد ، ج ١ ، ص ٤٧٢
— ٤٧٣ ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٧ ، ورقة ٥١٩ ؛ المقرئ ،
السلوك ، ج ١ ، ص ٥٤٠ .

الأشرف قاينباي قام بنصرة امرأة رفعت اليه قصة تشكو فيها من بدر الدين بن القرافي أحد نواب قضاة المالكية ، « اذ أمر باحضاره وبطحه وضربه ضربا مؤلما وغرمه في هذه الحادثة مالا له صورة ، وذلك بعد أن عقد عدة مجالس بينه وبين المرأة التي رافعت فيه » (٢٢) . كما يسجل موقفا مشرفا للسلطان قانصوة الغوري الذي لم يتورع عن ضرب ثلاثة من المماليك ضربا مبرحا حتى أن كادوا يهلكون ورسم بسجنهم بسبب تجرئهم على اختطاف ثلاثة من النسوة وأمر بأن تدفع جامكية أولئك المماليك الى تلك النسوة في نظير « ما شوشوا عليهن ... فدفعوا لكل امرأة ألفى درهم » (٢٣) .

على أنه من المبالغة أن تصور المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، وقد قدر المرأة على طول الخط وأحلها المكانة اللائقة بها في المجتمع على أساس أنها شريكة الرجل وساعده الأيمن في الحياة ، فاذا كنا قد رأينا بعض الاشارات والعبارات التي تدل على تقدير المعاصرين للمرأة ، فان هناك في المصادر نفسها من الاشارات والعبارات ما يفهم منه أن المرأة ظلت في

(٢٢) ابن اناس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٦٥ ؛
السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٩ ، ص ٢٧ .
(٢٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

نظر البعض « محل الازدراء والاستخفاف » (٢٤) ، وأداة متعة واستغلال كما يتضح من كتابات أحد المعاصرين الذى لا يستطيع المرء أن يقرأ مؤلفه دون أن تعلو وجهه حمرة الخجل (٢٥) لما جاء به من معلومات لا تليق بتلك التى ساهمت بنصيب وافر فى الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر . كذلك من عدم تورع بعض سلاطين المماليك عن ضرب امرأة بين يديه وتشهيرها على حمار فى الطريق العام وفى عنقها زنجير (٢٦) ، بل والأمر بقتلها فى بعض الأحيان (٢٧) . كذلك حدث أن أمر بعض السلاطين بمصادرة بعض النساء والترسيم عليهن بهدف الظفر ببعض مدخراتهن ، مثلما حدث لخوند أصل باى زوجة الأشرف جان بلاط التى

(٢٤) العينى ، عقد الجمان ، ج ٢٩ ، ورقة ٧ .

(٢٥) راجع كتاب السوطى ، الايضاح فى علم النكاح ، وكتاب التيجانى تحفة العروس ومتعة النفوس .

(٢٦) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٦٤ ، ٦٩٢ ، ٨٧٩ ؛ ابن نفري بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٣٧ ؛ أبو الفضائل ، كتاب النهج السديد ، ج ١ ، ص ٤٦٨ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ ، ٣٧١ .

(٢٧) ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ٢ ، ورقة ٢٤ ؛ ابن نفري بردى ، المنهل الصافى ، ج ٣ ، ورقة ١٩٦ ؛ المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٩٩ ، ٨٠٠ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٢١٤ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ؛

Wiet, Histoire mamlouke, II, p. 117

Journal d'un bourgeois, I, p 196 ; II, p 201.

وكل بها السلطان طومان باي عشرة من الخدام وقرر عليها
نحو من خمسين ألف دينار فباعت أشياء كثيرة من قماشها
وأخذت في أسباب وزن ما قرر عليها من المال (٢٨) ، ولزوجة
الأمير تاني بك الخازندار التي صادرها السلطان الغوري وقرر
عليها مالا ثقيلا ورسم عليها بجماعة من الطواشية مما اضطرها
الى بيع جهازها وجميع ما تملك من صامت وناطق بعد أن هددها
السلطان بالقتل غرقا ان لم تورد ما قرر عليها من أموال (٢٩) ،
وللست سارة والددة ناظر الخاص يوسف بن كاتب حكيم ، الذي
قرر عليها السلطان قايتباي مائة وخمسين ألف دينار ، وصمم
على ذلك وقرر معها أنها لا تباع ملكا ولا ضيعة ولا بستانا ،
ولم تفلح محاولات أحد من الأمراء ولا غيرهن في تخفيض هذا
المبلغ التي اضطرت أخيرا الى تقسيطه على عدة شهور (٣٠) .
كذلك يشير أحد المعاصرين الى ما حدث لرئيسة المغاني هيفة
اللزيدة ، التي رافعها بعض أعدائها بأن لها دائرة كبيرة من
المال ، فقبض السلطان الغوري عليها ، وأقامت في الترسيم ،
وعرضت للضرب غير ما مرة ، وقرر عليها خمسة آلاف دينار ،
فباعت الحلى وجميع ما تملكه وأوردت ألف دينار ، وتكلم لها

-
- (٢٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٧ .
(٢٩) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢١ - ٢٢ .
(٣٠) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

القاضي بركات موسى بأنها لا تملك غير ذلك ، فقرر عليها بعد ذلك خمسمائة دينار ترد في كل شهر مائة دينار . مما دفع بهذا الكاتب الى أن يقول : « وقد طفل السلطان نفسه الى مصادرة المغاني أيضا والأمر لله » (٣١) .

وتشير المصادر المملوكية الى أن الجوارى لم تكن أيضا بمعزل عن الأذى والامتهان ، نتيجة لوضعهن الاجتماعى واعتبارهن سلعة لصاحبها مطلق التصرف فيها . ويكفى أن نذكر هنا ما جاء فى قصة مريم الزنارية من قصص ألف ليلة — عندما عادت مريم الى أمها بعد غياب طويل ، فسألتها عن حالها وهل مازالت بكر أم لا ، فردت الفتاة على أمها قائلة : « يا أمى بعد أن يباع الانسان .. من تاجر الى تاجر يصير محكوما عليه ، فكيف أبقى بنتا بكرا ؟ أن التاجر الذى اشترائى هددنى بالضرب وأكرهنى وأزال بكارتى ثم باعنى لآخر ... » (٣٢) . هذا ويروى المؤرخون أن السلطان حاجى بن السلطان الأشرف شعبان أكثر من اىذاء جواريه حتى أنه كان اذا ضرب احدى جواريه ، فان ضربه لها يتجاوز الخمسمائة عصا (٣٣) .

-
- (٣١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٨٥ .
(٣٢) ألف ليلة وليلة — قصة مريم الزنارية ، ج ٤ ، ص ١٠٨ .
(٣٣) ابن نضرى بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ٥٠٥ ؛
الشوكانى ، البدر الطالع ، ج ١ ص ١٨٧ ؛ التسخاوى ، الضوء
اللامع ، ج ٣ ، ص ٨٧ .

بيد أن هذه الاشارات لا تعبر في رأينا عن الوضع
الغالب للمرأة ، فضلا عن ضرورة ملاحظة روح العصر ومستواه
الفكرى والحضارى ، لأنه من الأخطاء الشائعة التى يقع فيها
كثيرون عند دراسة التاريخ هو أن يحكموا على العصور
السابقة بعقلية ومنطق العصر الذى يعيشون هم فيه . ويكفى
عصر سلاطين المماليك فخرا مارواه المؤرخ ابن حجر العسقلانى
من أن بعض القضاة فى القاهرة كان اذا احتكم اليه رجل
وامرأته فانه كان لا يجبن عن مناصرة المرأة ما دامت صاحبة
حق ، وذلك برغم ما تعرض له ذلك القاضى من أذى على أيدي
بعض العامة الذين أدى ضيق أفقهم الى الرغبة فى عدم اعطاء
المرأة حقها المشروع فى الحياة ، مما جعلهم يثورون عليه
ويضربونه بالنعال ، بل وينهبون بيته أيضا (٣٤) .

(٣٤) ابن حجر ، الدور الكامنة ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

الفصل الثانی

دور المرأة في الحياة العامة

دور المرأة في الحياة العامة

رغم القيود الاجتماعية التي فرضتها التقاليد على المرأة في مصر على عصر سلاطين المماليك . فانها استطاعت المساهمة بنصيب وافر في الحياة العامة بدليل أن السخاوي أحد كتاب ذلك العصر قد أفرد في كتابه « الضوء اللامع » جزءا كاملا ذكر فيه ما يزيد عن الألف ترجمة لنساء عشن في القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، ولمعظمهن نصيب كبير في الحياة العامة بمصر أثناء تلك الفترة (٣٥) .

وهناك أيضا أدلة واقعية تثبت بما لا يقبل الشك مشاركة المرأة مشاركة فعالة في الحياتين العلمية والدينية ، اذ يسجل لنا التاريخ أسماء العديديات ممن اشتغلن بالنحو ونظم الشعر (٣٦) من أمثال فاطمة المعروفة بستينة ابنة القاضى كمال الدين محمود

(٣٥) انظر السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ .

(٣٦) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٩٥ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٩ .

ين تـرين^(٣٧) ، ونصار أم العز بنت أثير الدين بن حيان^(٣٨) وغيرهما كثيرات . أما من اشتغلن بالفقه والحديث فعددهن لا يحصى ويكفيـنا أن نشير هنا الى أم زينب فاطمة بنت عباس شـيـحة رباط البغدادية التي لقبها المقرئـي «بـسـيـدة نساء زمانها» وذكر عنها أنها « كانت فقيهة وافرة العلم زاهدة قانعة باليسير ، عابدة واعظة ، حريصة على النفع والتذكير ، وانتفع بها كثير من نساء دمشق ومصر ، وكان لها قبول زائد ، ووقع في النفوس^(٣٩) » . ودأبت الكثيرات منهن على التنقل بين الشام ومصر شأن فقهاء ذلك العصر للسمع من كبار المحـدثين والعلماء^(٤٠) . كذلك اشتهر بعضهن في الحديث بصحيح البخاري في قلعة الجبل ، الى جانب الفقهاء ، كست الوزراء أم

(٣٧) التـوكانى ، الدر الطالع ، ج ٢ ، ص ٢٥ ؛ السحـاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ١٠٧ ؛ كحـالـه ، أعلام النساء ، ج ٤ ، ص ١٠٢ .

(٣٨) ابن قاضى سـهـبة ، الاعلام بتاريخ الاسلام ، ج ٢ ، ورقه ٢٣٤ ؛ ابن حجر ، الدر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٩٥ .

(٣٩) تاريخ ابن الفـرات ، ج ١٤ ، ص ٧٢ ؛ ابن فاضى تنبيه ، الاعلام بتاريخ الاسلام ، ج ٢ ، ورقه ١١٢٦ ؛ المقرئى ، حـطـط ، ج ٢ ، ص ٤٢٨ ؛ على مبارك ، الخطـط . الجـدـد ، ج ٦ ، ص ٥٣ .

(٤٠) العـبـنى ، عقد الجمان ، حوادث سنة ١٣١٦/٧١٦ ؛ ابن فاضى سـهـبة ، الاعلام بتاريخ الاسلام ، ج ٢ ، ورقه ٣٠٧ .

محمد ابنة عمر بن أسعد ، التي حدثت بصحيح البخارى فى
القاهرة ومصر وقلعة الجبل على حد قول أحد مؤرخى هذا
العصر سنة ٧٠٥ / ١٣٠٥ (٤١) .

وتشير المصادر المملوكية وكتب التراجم أن كثيرا من كبار
فقهاء عصر المماليك سمعوا من بعض المسندات الشهيرات اللائى
أجزن لهم (٤٢) ، ولم يجد هؤلاء الفقهاء غضاظة — مع عظم
مكاتبتهم — من الاعتراف والنص صراحة على ذلك ، بل على
العكس نجدهم يفتخرون بأنهم سمعوا عن فلانة وفلانة من
المحدثات وأن بعضهن أجزن لهم فابن حجر أحد علماء القرن
التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، يذكر فى كتابه
« انباء الغمر » أنه حصل على أجازتين الأولى من شمس بنت
ناصر الدين محمد ، والثانية من خديجة بنت العماد
الصالحية (٤٣) . والسخاوى يصف كيف تراحم طلبة العلم فى
عصره على أنس ابنة عبد الكريم ، ويفخر بأنه ممن أخذوا
عنها . كذلك يذكر هذا العالم أسماء كثيرات ممن أجزن له مثل
آمنة ابنة الشمس المتوفاة ٨٦٧ / ١٤٦٣ ، وأمة الخالق ابنة

(٤١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٦٩ .

(٤٢) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ١١٩ ؛ ابن
قاضى شعبة ، الاعلام بتاريخ الاسلام ، ج ٢ ، ورقة ٩٢ .

(٤٣) ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ١ ، ورقة ٥٥٥ .

الزين عبد اللطيف المتوفاة سنة ٨٣٣ / ١٤٣٠ ، ورجب ابنـ
الشهاب أحمد المتوفاة سنة ٨٦٩ / ١٤٦٥ ، وأم هانيء ابـ
التقى محمد المتوفاة سنة ٨٨٥ / ١٤٨٠ التي يصفها بأنها « كانـ
مباركة دينه كثيرة التودد والموافاة » وغيرهن من المسنداء
والواعظات ممن تعلم على أيديهن ونهل منهن (٤٤) .

ويصف مؤرخو هذا العصر ، مدى اقبال عامة نساء عصر
المماليك ، على مجالس العلم والدين ، اذ حرصت كثيرات منه
على الذهاب الى المجالس العلمية والدينية ، حيث كن يجلسـ
— على حد قول الكاتب المغربي ابن الحاج — فى مكان منفرد
عن الرجال لسماع الدروس الدينية (٤٥) ، كما نجد فى مصادـ
تلك الفترة اشارات الى بعض الفقهاء والوعاظ الذين خصوا النساء
دون الرجال بعلمهم مثل الفقيه العلامة أبو العباس أحمد (٤٦)
وحجتهم فى ذلك كما جاء على لسان الشعرانى ، أن النساء
لا يعلمهن أحد من أزواجهن شيئاً ، ولذلك يجب اعطائهن عناـ
خاصة حتى يعرفن أحكام الدين وما عليهن من حقوق الزوجـ

(٤٤) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٥ ، ٦ ، ٩
٢٨ ، ٣٤ ، ٤٨ ، ٦٠ ، ٨٥ ، ١٠٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢
١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٤٤ .

(٤٥) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

(٤٦) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ١١١ .

والجيران (٤٧) . كذلك وجد الى جانب هؤلاء الوعاظ من الرجال فئة كبيرة من الواعظات اللائي تخصصن في وعظ النساء وتعليمهن وتحفيظهن القرآن ، نذكر منهن على سبيل المثال لا الحصر أسماء بنت الفخر ابراهيم وحنيفة بنت المحدث وعائشة بنت ابراهيم وفاطمة بنت عباس شيخة رباط البغدادية (٤٨) .

وسلكت بعض النساء في عصر المماليك طريق التصوف ، فلبسن الخرق كما يلبسها المتصوفة من الرجال وأطلق عليهن - حسب رواية ابن حجر - اسم الشيوخات أو الفقيرات (٤٩) ، وكان غالبيتهن من بين الأرامل والمطلقات اللاتي أقمن في الأربطة والخانقاوات لما اشتهرت به من شدة الضبط ، وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف العبادات (٥٠) ، تحت رئاسة شيخاتهن ، اللائي حرصن على لباس الصوف لمن تتوب على يدهن وادخالها في طريقتهن مثلما يفعل مشايخ الصوفية من الرجال . وقد حمل

(٤٧) الشعراني ، طبقات ، ج ٢ ، ص ١١١ .

(٤٨) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٣٦٠ ؛ ج ٢ ، ص ٢١٣ ؛ ج ٣ ، ص ٢٢٦ .

(٤٩) ابن حجر ، انباء الفهر ، ج ٢ ، ورقة ٨٤١ .

(٥٠) المقريزي ، خطط ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ - ٤٢٨ .

الكاتب المغربي ابن الحاج عليهن حملة شعواء وشبهه
بالمسيحيات في الأديرة ، كما عاب على المتصوفات في عصره
أصواتهن بالذكر ، وقال أن العجيب في هؤلاء الشيخات أن
لا يرضين الى موضع لعمل الذكر فيه الا بعد دفع الرسم الذي
لضامنة المغاني^(٥١) . شأنهن في ذلك شأن بقية غواني الع
الملوكي .

على أنه من الخطأ الواضح الاعتقاد بأن طريق التص
وليس الخرقه كان قاصرا على نساء الشعب وعامة الناس
تشير المصادر المملوكية الى بعض زوجات السلاطين ممن سا
هذا الطريق مثل خوند شكر باي ، زوجة السلطان الظ
خشقدم، التي وصفتها المصادر المعاصرة بأنها « كانت دينة خ
تميل الى طريقة الفقراء ، وليست خرقه الأحمديّة »^(٥٢) . و
لها اعتقاد كبير في الشيخ أحمد البدوي وتوجهت اليه وز
بعد سلطنة زوجها غير مرة كما جاء في النجوم الزاهرة
تغري بردي وفي غيره من المصادر الأخرى^(٥٣) ، وعند و
أنزلت من القلعة وعلى نعشها خرقه مرقعة للفقراء ولم

(٥١) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ١٤١ ، ١٤٢
(٥٢) محمد مصطفى ، صفحات لم تنشر ، ص ١٥٩ ،
عائشور ، المجتمع المصري ، ص ١٣٩ .
(٥٣) ابن تغري بردي ، حوادث ، ص ٧٥٨ ؛ النج
ج ٧ ، ص ٧٠٧ - ٧١٥ .

نعشها بيثخاناه على عادة الخواندات ، وجعل أمام نعشها أعلام
حمر أحمدية ، وكان ذلك بوصية منها^(٥٤) .

ولم يقتصر نصيب المرأة في الحياة العامة على الاشتغال
بالفقه والحديث وغيرهما من العلوم الدينية ، بل شاركت أيضا
مشاركة فعالة في كل ما يتعلق بالحياة اليومية ساعية الى كسب
قوت يومها جنبا الى جانب الرجل . ويشير مؤرخو تلك الفترة
الى العديد من النساء ممن قمن بدور الخاطبة^(٥٥) ، التي لعبت
دورا هاما في أغلب مشاريع الزواج على عصر سلاطين المماليك ،
اذ أنها كانت تعرف على حد قول ابن دنيال الموصلى « كل حرة
وعاهرة وكل مليحة بمصر والقاهرة »^(٥٦) ، كما يشيرون أيضا
الى البلاطات اللاتي كن يقمن بتحفيف النساء في الحمامات
العامة^(٥٧) ، والى المراضع والدادات اللاتي كن يشرفن على
تربية أولاد وبنات السلاطين والامراء في الأدر الشريفة^(٥٨) وفي

(٥٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٨٠٩ ؛ على
السخاوى ، تاريخ مصر ، ورقة ١٢٤٢ .

(٥٥) عن دور الخاطبة في العصر المملوكى انظر بحثنا عن :
La Femme, pp 59

(٥٦) ابن دنيال ، طيف الخيال ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٥٧) انظر
Ahmad Abd ar-Rāziq, La Femme, pp. 44-45

(٥٨) ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٢ .

بيوت أهل اليسر والثراء من طبقة التجار وكبار العلماء كما يفهم من قصص ألف ليلة وليلة^(٥٩) . وتتحدث المصادر أيضا عن الماشطة ، التي كانت تقوم بتجميل النساء في الحمامات العامة ، وتبغير الفقيرات منهن الثياب والنحلى في مناسبات الزواج والزفاف^(٦٠) . وعن الصانعة ، التي كانت تقوم بوشم النساء^(٦١) ، واعتادت أن تجوب طرقات المدينة « حاملة المشارط والكاسات وقد تأبطت المخلاة وأظهرت حول جيدها الطوق والشنوف المحلاة ، وغرزت عصابتها بكلايب الابر »^(٦٢) التي كانت تستخدمها في عملية الوشم ، وقد اشترط الفقهاء أن تكون هذه الصانعة من بين المسلمات ومن غير الشابات ، اللاتي يمشين مكشوفات الوجوه ، متبرجات ، خشية أن تكتسب المرأة شيئا من خصالهن وأحوالهن المذمومة شرعا^(٦٣) .

Mardrus, Le Livre des mille nuits, I, p. 152 (٥٩)

(٦٠) أبو الفضائل ، كتاب النهج السديد ، ج ١ ، ص ٤٦٧ ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٧ ، ورقة ٥٠٩ ، النويري ، نهاية الأوب ، ج ٤ ، ورقة ٢٥ ب .

Kahle, A Gypsy Woman, Journal of the Gypsy. (٦١)

XXIX, p. 14

(٦٢) عبد الحميد يونس ، خيال الظل ، ص ٧٥ .

(٦٣) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٤ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ؛ البخاري ، ج ٤ ، ص ١٣١ ؛ المقدسي ، بذل النصائح ، ورقة ١٠٨٤ ؛ التركماني ، اللمع ، ورقة ١٣٦ ب ؛ الشعراني ، لواقح الأنوار ، ج ٢ ، ص ٢١١ .

ومن الوظائف التى كانت قاصرة على نساء عصر سلاطين
المماليك فذكر الدايات^(٦٤) اللاتى كن يحضرن قبل الوقت
المنتظر للولادة بيومين أو ثلاثة أيام ، الى منزل السيدة المحتاجة
الى المساعدة كرسى الولادة ، الذى لا نزال نرى أحد نماذجه
محفوظا فى متحف بيت الكريديلية بالقاهرة - وهو ذو شكل
خاص تجلس عليه المرأة أثناء عملية الولادة ، وكان يغطى بشال
أو منشفة مطرزة ، ويزين ببعض الزهور والورود ويوضع أمام
منزل الحامل اعلانا عن قرب وصول مولدها^(٦٥) .

وجدت أيضا البغايا اللاتى كن يسمين ينات الخطأ
والخواطىء^(٦٦) ، وقد كثر عددهن فى الديار المصرية على عصر
سلاطين المماليك ، وكان لهن لباس خاص يعرفن به ، وهو لبس
الملاءات والطرح وفى أرجلهن سرافيل من أديم أحمر^(٦٧) . وقد

(٦٤) عن الداية انظر بحثنا عن La Femme, pp. 62-63

(٦٥) Lane, The Modern Egyptians, p. 509

(٦٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ ،
ج ٢ ، ص ٤١ ؛ محمد مصطفى ، صفحات لم تنشر ، ص
٩ ؛ الجوهري ، انباء الهصر ، ورقة ١٤٥ ؛ السخاوى ، الضوء
اللامع ، ج ٢ ، ص ٧٤ ؛ عبد المنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين
المماليك ، ج ١ ، ص ١١٧ ؛ زكى مبارك ، التصوف ، ج ١ ،
ص ٣٨١ .

(٦٧) القريرى ، خطط ، ج ٢ ص ٩٦ .

اعترفت الدولة بهن وفرضت عليهن ضرائب مقررة ، وجمعت من هذه الضرائب على حد زعم المؤرخ ابن تغرى بردى « جملة مستكثرة » (٦٨) . كما جعلت الدولة المملوكية للبغايا ضامنة عرفت باسم ضامنة المغاني ، تذهب اليها محترفة البغاء لتسجيل اسمها عندها . وكانت هذه الضامنة تتعهد بدفع مال الى الدولة في مقابل أن تتولى جمع ضريبة المغاني ، التي كانت تجمعها من النساء البغايا في مقابل أن تحميهن الدولة (٦٩) . وهكذا انتشر البغاء في مصر المملوكية ، حتى وقتت البغايا بالأسواق تحت أعين المارة (٧٠) . ولم يقتصر ذلك على القاهرة والمدن الكبرى بل عم بلاد الصعيد والوجه البحرى حيث خصص للبغايا حارات مربية معينة (٧١) ، كأرض الطبالة (٧٢) ، وربيع الزنى (٧٣) .

(٦٨) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٤٧ .

(٦٩) عن ضامنه المغاني ، انظر بحننا عن :

La Femme, pp. 79-80

؛ حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ج ٢ ، ص ٧٢٨ .

(٧٠) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ورقة ٣١٢ .

(٧١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٦٦ ؛ ابن قاضى شهبه ، الاعلام بتاريخ الاسلام ، ج ٢ ، ورقة ٢٣٥ ؛ ابن حجر ، انباء الغمر ج ١ ، ص ١٢٧ .

(٧٢) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٦٢ ؛ السلوك ج ٢ ، ص ٧٦٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ١٢ ؛ ج ٧ ، ص ٣٨٩ .

(٧٣) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

وجزيرة حليلة ما بين بولاق والجزيرة الوسطى التي ستمتها العامة بحليلة ونصّوا فيها عدة أخصاص بلغ مصروف الواحد منها ثلاثة آلاف درهم نقرة^(٧٤) . وقد حاول السلطان الظاهر يبرس أن يحد من البغاء في البلاد ، فأبطل المكوس المقررة على البغايا ، ومنع البغاء في القاهرة وسائر البلاد^(٧٥) ، كما أمر بحبس البغايا حتى يتزوجن ، وأمر ألا يزاد في مهرهن عن أربعمئة درهم يعجل منها مئتان رغبة منه في تيسير زواجهن^(٧٦) . ويشير المقرئ أيضا أنه كان من جملة الضرائب التي ألغها السلطان الناصر محمد بن قلاوون عقب الروك الناصري ، ضريبة حقوق القينسات وهي ما يجمع من « الفواحش والمنكرات » ، والضريبة المقررة على كل جارية أو عبد حين تزولهم بالخافات والفنادق لعمل الفاحشة^(٧٧) .

(٧٤) المقرئ ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٠٣ .

(٧٥) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥٤ ؛ ابن عبد الظاهر ، سيرة الظاهر ، ج ٣ ، ص ١١٦٠ ، مرعي بن يوسف ، نزهة الناظرين ، ورقة ١٦٨ .

(٧٦) تاريخ ابن الفرات ، ج ١٣ ، ص ٤٣ ؛ المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٧٨ .

(٧٧) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ؛ المقرئ ، خطط ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

والحديث عن نشاط المرأة ووظائفها في مصر على عصر
سلاطين المماليك يحتم علينا الإشارة الى تلك الطبقة من النساء
ممن اشتغلن بفن الموسيقى والغناء ، اذ اهتم الناس في هذا
العصر اهتماما كبيرا بأنواع الموسيقى والغناء ، وعمل السلاطين
على تشجيع المغنيين والمغنيات ويصف المؤرخ ابن تغرى بردى
أحد علماء الأزهر في ذلك العصر بأنه اشتهر بالتقشف والبعد
عن زخرف الدنيا ، ولكن مع ميل « الى سماع المغاني والرقص
واللهو » (٧٨) . كذلك روى الأدفوى في كتابه الطالع السعيد ،
عن أحد الفقهاء أنه سمع بمغنية شهيرة تغنى في مكان معين ،
فترك شيخه بعد الصلاة وتسلسل خفية لسماعها ، فلما عرف
شيخه سبب غيابه قال له عند عودته « أمرها عندي خفيف » (٧٩) .
لذلك لا عجب اذا وجدنا أدباء عصر المماليك وشعراءه يكثرون
من ذكر المغنيات في شعرهم كقول صفى الدين حجا بن أحمد
وقد استأذنت عليه مغنية في الدخول .

أدخلى تدخلى علينا سرروا
أنت والله نزهة العشاق

(٧٨) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٦ ، ص ١٣٦

(٧٩) إلفوى ، الطالع السعيد ، ص ٣٢٦ .

لا تميلى الى الخروج سريعا
تخرجنى عن مكارم الأخلاق

كذلك ترددت فى ذلك العصر أسماء الكثيرات من المغنيات،
صحبتها اشارات تدل على عظم مكاتهن فى المجتمع، مثل
حديجة الرحاوية المتوفاة سنة ٨٨٧/١٤٨٢ ، التى كانت على حد
واية ابن اياس « من أعيان مصر ولها أنشاد لطيف وحظيت
عد أرباب الدولة ورؤساء مصر ، وكانت جميلة الشكل حسنة
لحناء ، فأفتن بها الكثير من الناس » حتى قال فيها بعض الشعراء

رحاوية تخفى الشمس جمالها
لها حسن انشاد تزين مقالها
وقد خايلت بالبدر ليلة تمسه
فما زال من عيني وقلبي خيالها^(٨٠)

ومن مغنيات عصر المماليك نذكر أيضا خوي العوادة التى
ذكر عنها ابن حجر العسقلانى ، أنه لم يدخل مصر مثلها فى الفناء

(٨٠) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٣٣ ؛ ابن
مماس ، بدائع الزهور ج ٢ ، ص ٢٠٧ .

وضرب العود^(٨١) ، والريسة خديجة أم خوخة المتوفاة سنة
١٥١٢/٩١٨ ، التي كانت من أعيان مغاني الدكة ، ولها في هذ
الفن اليد الطولى والريسة بدرية بنت جريعة ، وكانت من أعيان
المغاني أيضا ، ولها شهرة بينهن واسعة^(٨٢) وضيعة الحموية التي
أنشدت في السلطان الناصر محمد بن قلاوون قائلة :

ولقد نذرت بأن رأيتك سالما
ونظرت وجهك أن أصوم شهورا
حذرا عليك من الزمان وغدره
حتى تعود مؤيدا منصورا^(٨٣)

بقي أن نشير الى عزيزة بنت السطحي ، التي كانت أيضا
من أعيان مغاني مصر ، فريدة عصرها في التشيد مع حسن
الصوت وفصاحة بأعراب الشعر ، فلم يخلفها من بعدها أحد
من النسباء المغاني ، ورأت على حد قول المؤرخ ابن إياس ، من
الأعيان وأرباب الدولة غاية العز والعظمة مالا رآه غيرها من

(٨١) ابن حجر ، الدر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٥٨ ، ج ٢ :
ص ٩٥ ؛ الصفدي ، أعيان العصر ، ورقة ٣ ب ؛ ابن تغري
بردي ، المنهل الصافي ، ج ٢ ، ورقة ١٧٤ ؛ أقبغا الخاصكي ؛
التحفة ، ورقة ٤٣ ب ؛ كحالة أعلام النساء ، ج ١ ، ص ٣٧٣ .

Wiet, Journal d'un bourgeois, I, p 241

(٨٢)

(٨٣) ابن أبيك الدواداري ، كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ١٤٧ .

أرباب الفن ... وكان لها بمصر شهرة زائلة وقال فيها الشهاب
المنصوري أحد شعراء هذا العصر :

وفتاة نزهت طرفي فيها
شغفت مسمعى بجوهر فيها
منذ زارت محبتها وتفت
كاد يرمى بنفسه من أييها^(٨٤)

أما عن نشاط النساء في شوارع المدينة وأسواقها
ومنتزهاتها فكان عظيمًا في العصر المملوكي . فقد ذكر أحد
المعاصرين أن مجالس الخلاعة بالقاهرة زحرت بالنساء الى جانب
الرجال^(٨٥) بالإضافة الى ذلك فإن الرحالة الأجانب الذين زاروا
القاهرة في عصر سلاطين المماليك مثل سانوتو وغيره ، لاحظوا
أن المرأة تتمتع بحرية كبيرة في شوارع القاهرة وأسواقها
ومنتزهاتها ، حتى أن بعضهن يتغيب عن منازلهن في أوقات كثيرة
من النهار ومع ذلك قلما يتعرضن للوم أزواجهن^(٨٦) . ويذكر

Wiet, Journal d'un bourgeois, I, p 6. (٨٤)

(٨٥) الجوبري ، المختار في كشف الأسرار ، ص ٣٥ ؛ سعيد
عاشور ، المجتمع المصري ص ١٣٩ .

Scheffer, Le Voyage d'Outremer, p. 33. (٨٦)

الفقيه المغربي ابن الحاج أن النساء في عصره يباشرن معظم أمور
الشراء من الأسواق « بل الغالب أن المرأة تشتري لزوجها
ما يحتاج اليه في لبسه لنفسه » (٨٧) . ولعل في هذا سبب مراعاة
محتسب القاهرة لسيرة وأمانة أهل الأسواق الذين اختصوا
بمعاملة النساء ، فإذا تحققهما منهم أقرهم ، وإن ظهرت من
بعضهم الريبة وبأن على أحدهم الفجور ، منعه من معاملتهن
وأنهاه عن التعرض لهن (٨٨) .

وإذا لم يكن للنساء حاجة من الأسواق فانهن يذهبن الى
الحمامات العامة حيث يأمنن ببعض . وقد عدد القرينى
حمامات القاهرة ومصر على أيامه فذكر أن بعضها خاص بالرجال
وبعضها خاص بالنساء ، وبعضها يفتح للرجال قبل الظهر وللنساء
بعد ذلك (٨٩) وفي الحمام اعتادت أن تجتمع النساء والصديقات
فيتناقلن أخبار الناس ويقصصن على بعضهن كثيرا من
أخبارهن وحياتهن المنزلية (٩٠) . وإلى الحمام تتجه المرأة التي

(٨٧) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

(٨٨) المقدسى ، بدل النصائح الشرعية ، ورقة ٥٩ ب .

(٨٩) القرينى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٧٩ - ٨٥ .

(٩٠) Pauty, Les hammams du Caire, p. 4

سيرة الظاهر بيبرس ، ج ١ ، ص ٦٦ .

لا يراها الناس الا محجبة ، فتكشف عن عورتها للبلالة
« والنساء في هذا المقام أشد تهالكا من الرجال ! » (٩١) وتكون
المرأة في هذه الحالة قد استصحبت معها أفخر ثيابها وأنفس
حليها لتلبسها بعد الاستحمام حتى يراها غيرها « فتقع المفارقة
والمباهاة » (٩٢) . كذلك لا عجب اذا أكثر أدباء عصر المماليك
وشعراؤه من وصف الحبيب في الحمام (٩٣) .

وكثيرا ما خرجت النساء الى البرك وشاطئ النيل وغيرها
من أماكن اللهو والفرجة ، حيث ينكشف ستر الحياء ويختلط
النساء بالرجال ، الأمر الذي أثار الفقهاء ورجال الدين فنادوا
بمنع النساء من الخروج على ذلك الوجه السافر (٩٤) . ولذلك
حاول بعض السلاطين منع النساء من الخروج الى الطرقات
والى أماكن النزهة مثلما حدث عام ١٤٢٢/٨٢٥ عندما منع
صدر الدين أحمد بن العجمي المحتسب ، النساء من الجلوس
على حوانيت الباعة للفرجة على المحمل وتشدد في ذلك وكاتت

(٩١) ابن الاخوة ، معالم القربة ، ص ١٥٧ .

(٩٢) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٣ ، ص ١٧٣ .

(٩٣) ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٢٣٠ ؛ ابن
دنيال ، طيف الخيال ، ص ١١٨ .

(٩٤) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٥ ؛ نج ٢ ،
ص ٣٣١ .

العادة أن تجلس النساء صدرا من النهار ويبتن بالحوانيت حتى ينظرن المحمل من الغد فيختلطن بالرجال في مدة يومين وليلة فتقع أمور غير مرضية^(٩٥) . وكما حدث عام ١٤٣٧/٨٤١ عندما نودى بالقاهرة ومصر وظواهرها بمنع جميع النساء بأسرهن من الخروج من بيوتهن ، وأن لا تمر امرأة في شارع ولا سوق البتة ، وتهدد من خرجت من بيتها بالقتل ، فامتنع عامة النساء ، فتباتهن وعجائزهن وأمائهن عن الخروج الى الطرقات وأخذ والى القاهرة وبعض الحجاب في تتبع الطرقات ، وضرب من وجدوا من النساء ... وتشددوا في الردع والتهديد فلم تر امرأة في شيء من الطرقات . فنزل بعدة من الأرامل وربات الصنائع ، ومن لاقيم لها يقوم بشأنها ، ومن تطوف على الأبواب تسأل الناس ، ضيق وضرر شديد ومع ذلك فتعطل بيع كثير من البضائع والثياب والعطر فازداد الناس وقوف حال ، وكساد معاش ، وتعطل أسواق وقلة مكاسب ولكن المنع لم يستمر الا زمنا محدودا سمح بعدها بخروج الاماء لشراء حوائج موالين من الأسواق ، بشرط أن لا تنتقب واحدة متهن ، بل يكن سافرات عن وجوههن . وأن تخرج العجائز لقضاء أشغالهن ، وأن تخرج النساء الى الحمامات ولا يقمن بها الى

(٩٥) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٦١٤ .

الليل ، فكان ذلك ، على حد قول المقرئى ، نوع من أنواع
الفرج (٩٦) .

كذلك اعتادت نساء مصر الخروج الى المقابر والقراغات
فى الليالى المقمرة وليالى المواسم والأعياد وليالى الجمع من كل
أسبوع ومعهم الريحان والزهور كالياسمين وغيره (٩٧) . وهناك
يدعون الأهل والأصدقاء ويقمن الولائم ومعهن أولادهن
وأزواجهن (٩٨) ، فيكثر الغناء والرقص ويحدث الفساد باختلاط
النساء بالرجال (٩٩) لذلك تشددت الدولة فى بعض الأحيان فى
خروج النسوة الى المقابر (١٠٠) ، اذ يذكر ابن الفرات فى تاريخه ،
أن نائب السلطنة كتبنا المنصورى تقدم عام ٦٧٩ / ١٢٨١ بأن
لا يجتمع الرجال والنساء فى ليالى الجمع بالقراغتين (١٠١)
ونقرأ أيضا عن تسلط الأمير علاء الدين الطبرسى والى باب

(٩٦) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ١٠٣٢ - ١٠٣٣ ؛
ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٦ ، ص ٧٦٠ ؛ على السخاوى ،
تاريخ مصر ، ورقة ١١١ .

Schefer, Le Voyage d'Outremer, p. 51. (٩٧)

(٩٨) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٧٤ .

(٩٩) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ .

(١٠٠) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ١٧ - ٢٣ .

(١٠١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٩٦ .

القلعة ، على النساء ومنعهن من الخروج الى الأسواق
 وكان يخرج أيام المواسم الى القرافة وينكل بهن
 الخروج في زمانه الا لأمر هام مثل الحمام وغيره (١٠٢)
 ١٤٢١/٨٢٤ نودى بمنع النساء من الخروج الى
 الأمير جقمق الحاجب في ذلك ، وكان قد كثر في شهر
 مرض الناس ومات عدة منهم فصارت النساء يتردد
 أيام الجمع ويقمن بها المأتم والعزاء (١٠٣) ويسجل
 المؤرخ ابن حجر العسقلاني منعاً آخر عندما يشهد
 نودى عام ٨٣٣/١٤٣٠ بمنع النساء من الخروج
 « وتوعد المكاري الشنق والمرأة بالتعزير (١٠٤)
 هذا المنع لم يستمر طويلاً وعاد بعده الحال الى
 من قبل بدليل اشارة نفس المؤرخ الى قضاء رابع
 من الخروج الى الترب أيام الجمع سنة ٨٣٥/
 وباستمرار هذا الحال قدر شهر عادت بعده النساء
 الى القرافات وغيرها من أماكن اللهو والفرجة (١٠٦)

(١٠٢) المقرئى ، السلوك ج ٢ ، ص ٥١
 بردى ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٢٣٠ .

(١٠٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٥٦٦

(١٠٤) ابن حجر ، انباء الفهر ، ج ٣ ، ص

(١٠٥) ابن حجر ، انباء الفهر ، ج ٣ ، ص

Abd ar-Rāziq, La Femme, p 40 (١٠٦)

الفصل الثالث

سلطان المرأة ونفوذها

سلطان المرأة ونفوذها

كان للمرأة نفوذها وسلطانها على عصر سلاطين المماليك الى حد يسترعى الانتباه فهناك أدلة واقعية كثيرة تثبت تدخل نساء السلاطين والأمراء في شئون الحكم ومشاركتهم في توجيه سياسة الدولة . وأول هذه الأمثلة شجر الدر التي وصفها المؤرخون بأنها كانت « صعبة الخلق قوية البأس » (١٠٧) ، اذ استطاعت أن تنقذ البلاد وتدير شئونها في فترة عصيبة من أخرج فترات التاريخ المصري ، فضلا عن أنها تولت عرش الديار المصرية وقضت فيه ثمانين يوما (١٠٨) برهنت خلالها على كياسة عظيمة وذكاء وافر (١٠٩) . كذلك نسمع عن أم السلطان السعيد

(١٠٧) الذهبي ، تاريخ الاسلام ، ج ٢٠ ، ورقة ١٣٩ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٩١ .

(١٠٨) العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٧ ، ورقة ٣٨٩ .

(١٠٩) المعريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٣ ، ٣٦٢ ؛ ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ج ٣ ، ورقة ١٦٤ ب ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٧ ، ورقة ٣٨٩ ؛ سعيد عاشور ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص ١٤ - ٢٢ .

بركة خان التي كانت تتمتع أيضا بنفوذ عظيم ليس فقط على
ابنها ولكن أيضا على أمراء الدولة بدليل أنه عندما شب الخلاف
سنة ٦٧٦ / ١٢٧٧ بين الملك السعيد وأمرائه لم يجد خيرا من
أمه لبيعث بها للتفاوض مع الأمراء ، في الصلح ، فأظهروا لها
كل احترام واشتروا عليها شروطا كثيرة ، التزمت لهم بها
وعادت الى ولدها لتخبره نتيجة وساطتها (١١٠) .

وتتحدث المصادر أيضا عن خوند أشلون أم السلطان
الناصر محمد بن قلاوون التي لعبت دورا مماثلا عندما صعدت
سنة ٦٩٣ / ١٢٩٤ الى أعلى سور القلعة بعد أن طال حصار
الأمراء لها وتحدثت اليهم في أسباب ذلك الحصار ، وناقشت
معهم أهم مطالب رجال الدولة بعد أن أكدوا لها أن « مالهم
غرض الا مسك الأمير سنجر الشجاعى واخماد الفتنة (١١١) »

(١١٠) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ورقة
٨٩ ب ؛ تاريخ ابن العرات ، ج ٧ ، ص ٩٦ ، ١٤٢ ؛ ابن خلدون ،
العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩٣ ؛ المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص
٦٤٥ ؛ المقفى ، ورقة ١٧٤ ب ؛ التويرى ، نهاية الأرب ، ج ٤ ،
ورقة ١٩٦ ؛ الجعفرى ، بهجة السالك ، ورقة ٦٤ ب ؛ ابن اياس ،
بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١١٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية
ج ١٣ ، ص ٢٨٨ .

(١١١) ابن شاکر ، عيون التواريخ ، ج ٢١ ، ورقة ٥١ ؛
المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٨٠١ ؛ ابن تفسرى بردى ،
النجوم ، ج ٨ ، ص ٤٥ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ،
ص ١٨٩ .

ويعصف المؤرخ ابن اياس خوند زينب احدى زوجات السلطان الأشرف اينال أنها « كانت من أجل الخوندات قدرا ورأت في دولة زوجها الأشرف اينال غاية العز والعظمة حتى صارت تدبر أمور المملكة من ولاية وعزل ، وكانت نافذة الكلمة وافرة الحرمة في سعة من المال ... وكانت اذا دخلت على السلطان الأشرف قايتباي يقوم لها ويعظمها^(١١٢) » ، كما وصفها ابن تغرى بردى بأنها « صار لها نصيب وافر مع السلطان في كل هدية ورشوة^(١١٣) » أما السخاوى فأشار « الى طواعية السلطان جدا لأوامرها حتى كان لا اختيار له معها^(١١٤) » . ومثل هذه الأوصاف نجد لها أشباها كثيرة لبعض نساء المماليك كخوند بركة أم السلطان الأشرف شعبان ، الذى كان لا يصدر أى أمر من الأمور الا بعد مشاورتها ومراجعتها ، بل لم يكن بمقدوره مخالفتها^(١١٥) ، وأم السلطان الصالح اسماعيل التى

(١١٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .

(١١٣) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٢٢٩ ؛ نزهة الانسان ، ورقة ١٧٤ .

(١١٤) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٥٤ .

(١١٥) ابن الشحنة ، الذيل من كتاب المنهل ، ج ٣ ، ورقة

٧ ب ؛ ابن حجر ، افياء الغمر ، ج ١ ، ص ٤١٠ .

تمتعت بنفوذ وافر وحرمة زائدة^(١١٦) ، وخوند جلبان زوجة
السلطان الأشرف برسبای التي « عظمت حرمتها في الدولة
وقصدها الناس لقضاء حوائجهم ... وكانت من عظماء النساء
ولو عاشت حتى تسلطن ولدها العزيز يوسف ، لكانت دبرت
ملكه أحسن تدبير^(١١٧) » .

ولدينا معلومات وفيرة عن مدخل نساء السلاطين للإصلاح
بينهم وبين أمرائهم . فيروي المقریزی أن السلطان الكامل
شعبان قصد في سنة ٧٤٧ / ١٣٤٦ أخذ أموال الطواشي كافور
الهندي ، فشفعت فيه خوند طغای أرملة السلطان الناصر محمد
ابن قلاوون فاكتفى السلطان بإخراجه الى القدس^(١١٨) . أما
السخاوی فيصف لنا كيف أن السلطان الظاهر خشقدم قد
رسم بنفى اللالا خشقدم الرومي الى المدينة النبوية ، غير أن
خوند شكر باي زوجة السلطان رفضت الموافقة على ذلك ،
مما اضطر السلطان في النهاية الى التراجع في قراره هذا^(١١٩) .

(١١٦) المقریزی ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٢٥ - ٦٣١ .

(١١٧) ابن تعری بردی ، المنهل الصافي ، ج ٣ ، ورقة

٦ ب ؛ النجوم ، ج ٦ . ص ٨٤٢ .

(١١٨) المقریزی ، السلوك ؛ ج ٢ ، ص ٧٠٦ .

(١١٩) السخاوی ، الصوء اللامع ، ج ٣ ، ص ١٧٦ .

وكثيرا ما تقرأ أيضا في الكتب المعاصرة أن زوجة أحد السلاطين كانت وراء حصول بعض الأمراء على ما يرغبون من سلطة ونفوذ^(١٢٠) ، اذ جاء في ترجمة كافور الصيرغتمشى الزمام « أنه خديم عند السلطان الظاهر برقوق بواسطة زوجة السلطان ، خوند هاجر بنت منكلى بغا الشمسى^(١٢١) » . ونسمع أيضا عن العديد من الأمراء الذين شغلوا بعض الوظائف الهامة في البلاط المملوكى بسفارة خوند مغل زوجة السلطان الظاهر جقمق مثل أحمد بن محمد العطار الذى ظفر بوظيفة الدواديرية^(١٢٢) ، وجوهر القنقبای الذى أضيفت اليه وظيفة الزمام^(١٢٣) ، وسودن المحمدي الذى دام خاصكيا دهرا طويلا لا يلتفت اليه الى أن أمره الملك الظاهر جقمق لكون زوجته أخت خوند مغل زوجة السلطان ، ثم جعله السلطان من جملة رؤس النواب^(١٢٤) » .

ويبدو أنه عندما أدرك المعاصرون سلطة النساء ونفوذهم

-
- (١٢٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١١٦ .
 - (١٢١) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٢ ، ورقة ٣٨ ب ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٦ ، ص ٢٢٦ .
 - (١٢٢) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٨٣ .
 - (١٢٣) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٨٣ .
 - (١٢٤) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٢٨٦ .

صاروا يوسطوهم لقضاء حوائجهم فقد حكى السخاوى عن العلم البلقيني أنه توصل الى منصبه عن طريق زوجته خديجة « لمزيد اختصاصها بخوند العظمى » زوجه السلطان الأشرف اينال^(١٢٥) . « فاذا تعذر على تاجر قضاء مطلب عند أهل الدولة بحث عن الطريق الذى يوصل به شكواه الى حريم السلطان وعندئذ تقضى حاجته فوراً^(١٢٦) » .

وتتحدث المصادر المملوكية أيضا عن أولئك الذين نجحوا فى احتلال بعض المناصب الهامة فى الدولة المملوكية بفضل زواجهم باحدى بنات السلاطين أو باحدى قريباتهم ، اذ جاء فى كتاب الدرر الكامنة لابن حجر أن الأمير برلغى الأشرفى تضاغت حرمة فى البلاط السلطاني بعد زواجه من بنت السلطان بيبرس الجاشنكير^(١٢٧) ، كما يذكر أيضا فى معرض حديثه عن الأمير أقبغا من عبد الواحد ، أنه تقدم عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون بفضل زواج السلطان المذكور من أخته خوند طغاي^(١٢٨) . ويحكى المؤرخ ابن تغرى بردى أن الأمير الجاى اليوسفى قد عظمت حرمة فى.

(١٢٥) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٢٥ .

(١٢٦) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٤١٢ .

(١٢٧) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٧٦ .

(١٢٨) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٣٩١ .

الدولة بزواجه من خوند بركة أم السلطان الأشرف شعبان (١٢٩)،
وأن الأمير اينال الظاهري صارت له كلمة نافذة في الدولة ،
لزواجه بخوند بيرم أخت السلطان فرج بن برقوق (١٣٠) .

على أنه من الخطأ البين أن نعتقد أن نفوذ المرأة وسلطانها
كان وفقا على طبقة الخوندات وزوجات السلاطين ، اذ كثيرا
ما نسمع أن جارية أحد السلاطين أو محظيته قد تسببت في رفع
الظلم عن أحد التجار . كما يحدثنا المقریزی في وقائع سنة
١٣٣٦/٧٣٧ ، عن كيفية تطرف بعض الولاة في مصادرة
التجار وانزال المظالم بهم فقام عدة من الأمراء الأكابر ليشفعوا
للتجار ولكن السلطان لم يسمع لأحد منهم قولا حتى اذا
قامت ست حديق دادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون
ومريته في رفع الظلم عن التجار ، عندئذ استمع السلطان
لرجائها ونفذ رغبتها فورا (١٣١) . ويذكر أيضا في معرض حديثه
عن السلطان الكامل شعبان أن الأمراء أخذوا على السلطان

(١٢٩) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ، ج ٢ ورقة ٨ ب ،
٧١ ب؛ النجوم ، ج ٩ ، ص ٥٨ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٥
ص ٤٥٩ ؛ ابن الشحنة الذيل من كتاب المنهل ، ج ٣ ، ورقة ١٨ .

(١٣٠) ابن تغرى بردى ، المنهل ، ج ٢ ، ورقة ٤٠ ب .

(١٣١) المقریزی ، السلوك ج ٢ ، ص ٤١٢ .

المذكور تمكينه الخدام والنساء من التصرف في المملكة (١٣٢) ،
وأن السلطان شعبان ما قوى عزمه على السفر الى الحجاز الا
موافقة لأغراض نسائه (١٣٣) . كذلك يروى لنا أحد المعاصرين
قصة طريفة مؤداها أن السلطان حسن بلغه أن الأمير الخاصكي
يريد قتله وأنه لا يدخل الى الخدمة الا وهو لا بس آلة الحرب
من تحت ثيابه ، فأمر السلطان باستدعائه « وهو مع حريمه في
خلوة وأمر فنزعت ثيابه كلها ، ثم كتف يداه فشفت فيه احدى
حظايا السلطان ، حتى خلى عنه وخلع عليه ، واعتذر
اليه ... » (١٣٤) .

وحسبنا أن فشير في النهاية الى ما ذكره ابن حجر عن
ملغى جارية السلطان الناصر محمد بن قلاوون التي « بسببها
أبطل الناصر عن مكة المكس الذي كان يؤخذ على القمح » (١٣٥) ،
وما رواه عن دنيا بنت الأقباعي المغنية الدمشقية ، التي حظيت
عند السلطان الأشرف شعبان ، والتي كانت من أعظم الأسباب
في اسقاط مكس المغاني (ضمان المغاني) سنة ٧٧٨ / ١٣٧٧ ، اذ
« سألت السلطان في ذلك فأجاب اليه (١٣٦) » .

-
- ١٣٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٩٢ ، ٧١٣ .
 - ١٣٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٠٨ .
 - ١٣٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٠ .
 - ١٣٥) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .
 - ١٣٦) ابن حجر ، انباء الفهر ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

غير أن هذا النفوذ الواسع التي تمتعت به المرأة على عصر
سلاطين المماليك كان سببا في إثارة بعض فقهاء هذا العصر
وعلى رأسهم الفقيه ابن تيمية الذي كثيرا ما كتب محذرا من
طاعة النساء لأن « أكثر ما يفسد الملك والدول طاعة
النساء » (١٣٧) .

(١٣٧) ابن تيمية ، مجموع فتاوى ، ج ٢ ، ص ٧٧ .

الفصل الرابع

الزواج

الزواج

الزواج هو اللبنة الأولى في بناء الأسرة التي هي أساس المجتمع ، وقد شرعه الله منذ خلق أبانا آدم عليه السلام ، للتوالد والتناسل وعمارة الكون . وقد جاءت الأديان السماوية تدعو اليه وتحث عليه ، كي يتحقق بقاء الجنس الانساني الذي جعله الله خليفته في الأرض ، بل أن الفطرة نفسها تدعو اليه ، فالزواج ينظم هذه الفطرة ، في صورة تحفظ فيها الانساب وتضان الأعراض . وهو اذا ما روعيت أحكامه ، يضمن على الزوجين حياة سعيدة يسكون القلب واطمئنان النفس في ألفة ومحبة وعطف . والى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

فالزواج « نظام الهى » وضعه الشارع الحكيم لخير الفرد والأسرة والمجتمع وقد جعله الله تعالى من آياته وعده نعمة على عباده ، لذلك عنى التشريع الاسلامى بعقد الزواج عناية خاصة ، نظرا لخطورته ، ولأثره في حياة الانسان ووضع له من الأحكام في مراحله ما يكفل تحقيق الأغراض المنشودة

منه . والواقع أننا لسنا بحاجة هنا الى التنويه الى كل هذا ، بقدر ما نحن بحاجة الى التعرف عن كيفية عثور الرجل على شريكة لحياته في مجتمع سيطرت عليه تقاليد معينه كالحجاب والفصل بين الرجل والمرأة ، وعدم السماح برؤية العروس الا بعد زفافها . وكذا التعرف على التقاليد والعادات التي صاحبت الزواج اذ يقول الفقيه المغربي ابن الحاج في هذا الصدد « أما النكاح فلا تسأل عما أحدثوا فيه ... وهو كثير متعدد قل أن ينحصر أو يرجع الى قانون معلوم لاختلافه بالنسبة الى الأقاليم والبلاد والعوائد (١٣٨) » .

حقيقة أن المصادر المملوكية التي تحت أيدينا الآن قد ضمنت علينا بالكثير من المعلومات الخاصة بمراحل الزواج الأولى ، ونعني بها مرحلة الخطوبة الا أنه من المسلم به أن الخطوبة قد قامت في ذلك العصر بدور كبير في اتمام مهمة الخطوبة . وصور هذا الدور بوضوح ابن دنيال الموصلي في بابه « طيف الخيال » فإشار كيف يقصد راغب الزواج المخطوبة لأنها « تعرف كل حرة وعاهرة ، وكل مليحة بمصر والقاهرة » . ذلك أنها تتظاهر ببيع الطيب والبخور وغير ذلك من لوازم النساء ، وبذلك يتاح لها دخول البيوت والاطلاع

(١٣٨) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٣ ، ص ٢٨٨ .

على أسرار الحريم فتستطيع أن تأتي للعريس بالعروس التي تتفق مع رغباته ومطالبه (١٣٩) . ويفهم أيضا من تمثيلية ابن دنيال ، أن هذه المرأة قد اعتادت أن تبالغ في المعلومات التي تمد بها كلا الطرفين فالأمير وصال يفاجأ في النهاية على حد قول هذا الكاتب « بعروسه شوهاء مخيفة » ولا يملك وقتها إلا أن يغمى عليه من هول بشاعتها وبعد أن يفيق يصمم على الانتقام من الخاطبة الداهية التي أوقعته في هذا المأزق (١٤٠) .

وجرت العادة أنه إذا رضى الراغب في الزواج بالمعلومات التي قدمتها له الخاطبة فانه يسرع اليها ثانية مقدما لها هدية ويرسلها من جديد الى عائلة الفتاة لتبلغها رغبته في الاقتران بابنتها . وعلى الرغم من أن الشريعة الاسلامية قد نصت صراحة على ضرورة موافقة الفتاة على شريك حياتها ، الا أنه من الراجح أن الفتاة في العصر المملوكي لم يكن لها أى رأى في اختيار زوجها ، بل ظل الرأى الأول والأخير لوالدها، وربما شاركته في ذلك أمها (١٤١) .

(١٣٩) ابن دنيال ، طيف الخيال ، ص ٣٩ — ٤٩ ،
Lane, The Modern. Egyptians, p. 162

(١٤٠) ابن دنيال ، طيف الخيال ، ص ١٣٢ .
(١٤١) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٣٩١ ؛ طاهر
الطناحى ، ألف ليلة وليلة ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .

غير أنه من الصعب التسليم بأن أفراد طبقة الممالك قد سموا أيضا إلى اختيار زوجاتهم عن طريق الخاطبة وذلك لقلة المعلومات التي وصلتنا عن هذا الموضوع ، وإن كنا نستطيع الجزم بأن أفراد هذه الطبقة قد ترك لهم حرية اختيار زوجاتهم من بين بنات جنسهم اللائى كن يجلبن إلى مصر بواسطة تجار الرقيق ، ولعل فيما رواه المؤرخ بيبرس الدوادار بصدد زواج الملك الصالح بن السلطان المنصور قلاوون بخوند منبك خير دليل على ذلك ، اذ يقول : أن زوجة أبيه قد اختارت له « بنت سيف الدين نوكيه ، وكان له بنتان ، فمالت إليهم للجنسية ، ولأنهم فسدوا جميعا في وقت واحد إلى الديار المصرية ... » (١٤٢) وهذا يعنى أن الزواج عند هذه الطبقة كان بعيدا كل البعد عن الاعتبارات السياسية التي نلاحظها في مجتمع العصور الحديثة . حقيقة أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد تزوج سنة ٧٢٠/١٣٢٠ بخوند طولبية ، إحدى الأميرات المغوليات (١٤٣) ، يبد أن هذا الزواج لم يدم طويلا

(١٤٢) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة، ج ٩ ، ص ١٣٨ ب .
(١٤٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٢٢ ، ص ٢٢٨ ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج ٣٢ ، ورقة ٢٠٥ - ٢٠٨ .

وسرعان ما هجرها (١٤٤) ليقترن بغيرها من بنات جنسه . فقد حرص أفراد طبقة الممالك على مصاهرة بعضهم البعض حتى كانت بين كثير منهم صلات نسب متينة . اذ جاء في كتاب السلوك للمقريزى أن السلطان الناصر زوج احدى عشرة ابنة من ممالكه (١٤٥) : مثل الأمير قوصون ، والأمير بشتاك ، والأمير الطنبغا الماردينى ، والأمير طغاتمر ، والأمير عمر بن النائب وغيرهم (١٤٦) . وقرأ أيضاً عن زواج الأمير منكلى بغا الشمسى بخوند سارة أخت السلطان الأشرف شعبان (١٤٧) ، وعن زواج ستيتة ابنة السلطان المذكور بالأمير الكبير منطاش (١٤٨) . ونسمع كذلك عن زواج خوند زينب أخت

(١٤٤) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ١ ، ورقة ١٦٧ ب .

(١٤٥) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٣٦ .

(١٤٦) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ ، ٢٨٨ ؛ خطط ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ؛ العنى ، عقد الجمان . ج ٣٢ ، ورقة ٣٨٩ ؛ الصفدى ، أعيان العصر ، ج ٣ ، ورقة ١١٥ ؛ أقفا الخاصكى ، التحفة ، ورقة ١٢٠ ؛ على مبارك ، الخطط الجديدة ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(١٤٧) المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١٥٧ .

(١٤٨) المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٦١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٣٥١ ؛ ابن حجر ، انباء العصر ، ج ١ ، ص ٣٧٩ ؛ تاريخ ابن القرات ، ج ٩ ، ص ١٤٥ .

السلطان فرج بن برقوق بالأمير سودون الحمزاوى^(١٤٩) وعن
اقتراح ابنة السلطان المؤيد شيخ عام ٨٢٢/١٤١٩ بالأمير
الطنبغا^(١٥٠) وهكذا .

وتتحدث المراجع التاريخية التي وضعت في العصر
المملوكى عن السلاطين الذين تزوجوا من بنات الأمراء من أمثال
السلطان المنصور قلاوون الذى تزوج سنة ٦٨١/١٢٨٢
بخوند أشلون ابنة الأمير سنكاى^(١٥١) ، وبابنة الأمير شمس
الدين سنقر التكريتى^(١٥٢) ، والسلطان الكامل شعبان الذى
حرص على اختيار زوجاته من بين بنات مماليكه^(١٥٣) ،
والسلطان الظاهر برقوق الذى تزوج بفاطمة ابنة الأمير

(١٤٩) ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(١٥٠) ابن تفرى بردى ، المنهل الصاوى ، ج ٢ ، ورقة ١٨٨ أ .

(١٥١) بيبرس الدوادار ، ردة الفكرة ، ج ٩ ، ورقه ١٣٩ ؛ المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٠٩ ؛ النويرى ، نهاية
الارب ، ج ٥ ، ورقة ١٢٥ ب ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١١٥ .

(١٥٢) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٦٩ ؛ النويرى ، نهاية
الارب ، ج ٥ ، ورقة ١٤٠ ب .

(١٥٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٩٠ .

منجك^(١٥٤) وبابنة الأمير منكلى بغا الشمسى^(١٥٥) ، والسلطان
جقمق الذى تزوج على حد زعم مؤرخى هذا العصر بخمس من
بنات مماليكه^(١٥٦) .

من هذا يتضح أن أفراد طبقة المماليك لم يحاولوا الزواج
من أهل البلاد المصريين ، بل اختاروا كما سبق أن رأينا زوجاتهم
وجواريهن من بنات جنسهم اللائى جلبهن التجار^(١٥٧) . كذلك
رسم السلاطين للقضاء والشهود أن لا يعقد أحد منهم قران
مملوك من المماليك الا باذنه ويستثنى من ذلك بعض الحالات
التي تتخذ دليلا على اختلال نظام المماليك كما حدث أيام
السلطان الظاهر برقوق عندما رخص للماليك فى سكن القاهرة
والاختلاط بأهلها « فنزلوا من الطباق من القلعة ونكحوا نساء
أهل المدينة وأخلدوا الى البطالة »^(١٥٨) . ويسجل لنا التاريخ

(١٥٤) المعري ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١٥٣ .

(١٥٥) ابن اناس . بدائع ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

(١٥٦) ابن نغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٢ ، ورقة
١٩٥ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٤٠ ؛ ابن اياس ،
بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

Ahmad Abd ar-Raziq, Un document, JESHO, (١٥٧)
XIII, p 309 ; La Femme, p. 128

(١٥٨) المقرئى ، خطط ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ .

أيضا أسماء بعض الخوندات ممن أقدمن على الزواج من أفراد الشعب مثل خوند فاطمة ابنة السلطان. الظاهر ططر التي تزوجت بالقاضي شرف الدين الانصارى ، الذي هجرها بعد قليل ليقترب بأبنة الأمير جرباش الكريمي (١٥٩) .

فاذا انتهى دور الخطوبة جاء الدور الثاني الخاص بعقد القرآن ودفع المهر أو الصداق الذي لا زواج بدونه (١٦٠) ، والذي كثيرا ما كان موضوع مساومات ومناقشات عديدة من كلا الطرفين (١٦١) . ويبدو أن العريس كان يئن دائما من الصداق اذ نرى الامير وصال في بابة « طيف الخيال » يصف حاله فيقول : لا بد من تدبير الحال وتجهيز المال على أنى الليلة أعوز من زنبور وأفلس من طنبور وأنشد يقول :

في منزل لم يبق غيرى قاعدا
فاذا رقدت رقدت غير ممدد
لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة
ومخدة كانت لأم المهتمدى

(١٥٩) الجوهري ، انباء الهصر ، ورقة ١٥٤ .

(١٦٠) التركمانى ، اللمع ، ورقة ١٦٥ .

Lane, The Modern Egyptians, p. 164

(١٦١)

ملقى على طراحية في حشبوها
قمل شبيه السمسمة المتبدد
هـذا ولي ثوب تراه مرقعها
من كل لون مثل ريش الهدد (١٦٢)

وقد جرت العادة ان يدفع جزء من المهر مقدما قبل عقد
القران ، أما الباقي الذى اصطلح على تسميته بمؤخر الصداق
فكان يسدد على أقساط مؤجلة كما يفهم من أغلب عقود الزواج
التي وصلتنا من هذا العصر والمحفوطة بمتحف الفن الاسلامى
بالقاهرة (١٦٣) . وقد يبدو مناسبا ونحن بصدد الحديث عن
الصداق أن نشير الى المبالغ الباهظة التي اعتادت طبقة المماليك
أن تدفعها لنساء هذا العصر ، والتي حرص مؤرخو تلك الفترة
على اثباتها في مؤلفاتهم التاريخية لتشير الى المكانة الرفيعة التي
التي احتلتها المرأة على عصر سلاطين المماليك ، اذ جاء في النجوم
الزاهرة للمؤرخ المملوكى ابن تغرى بردى أن السلطان جقمق

(١٦٢) ابن دانيال ، طيف الخيال ، ص ١٣٢ .

Ahmad Abd ar-Raziq, Un document, JESHO, XIII (١٦٣)
pp. 310-312 ; La Femme, pp. 130-133 ;

سعاد ماهر ، عقود الزواج على النسوجات الانرية
ص ٥ - ٣٦ .

عقد قرانه على نفيسة ابنة الأمير ناصر الدين بن دلغادر بعد أن حمل اليها المهر ألف ألف دينار وعدة أشياء كثيرة من الشقق الحرير وغيرها (١٦٤) ، وذكر المقرئ أن قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة عقد قران السلطان الناصر محمد بن قلاوون على خوند طولبيه على ثلاثين ألف دينار ، الحال منها عشرون ألفا ، والمؤخر عشرة آلاف (١٦٥) ، كما روى ابن اياس بصدد زواج ناصر الدين محمد بن السلطان الأشرف قانصوه بابنة الأمير سيباي ، فائب الشام على صداق جملته نحو عشرين ألف دينار (١٦٦) . وتشير المصادر أيضا الى أن الأمير بشتاك رأس نوبة تزوج بخوند سارة أخت السلطان الأشرف شعبان على صداق جملته خمسة عشر ألف دينار مصرية ، وأربعة مائة

(١٦٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١١٠ ؛ على السخاوى ، تاريخ مصر ، ورقة ٥٣ ب .

(١٦٥) المقرئ السلوك ، ج ٢ ص ٢٠٥ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ص ٢٨٨ ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج ٣٢ ، ورقة ٢٠٨ ؛ ابن قاضي شهبة ، الاعلام بتاريخ الاسلام ، ج ٢ ، ورقة ١٥٧ ب الذى أشار أن قيمة المهر قد بلغت ٦٠,٠٠٠ دينار .

Wiet, Journal d'un bourgeois, I, p. 377.

(١٦٦)

ألف درهم فضة^(١٦٧) ، وأن أنوك بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون تزوج بابنة الأمير بكتمر الساقى على صداق مبلغه من الذهب اثنا عشر ألف دينار، المقبوض منه عشرة آلاف دينار^(١٦٨) ، وأن السلطان الصالح اسماعيل عقد على بنت الأمير أحمد بن بكتمر الساقى ، وأصدقها عشرة آلاف^(١٦٩) ، كما فقرأ في مصادر تلك الفترة أن السعيد بركة خان بن السلطان بيبرس البندقدارى تزوج بغازية خاتون ابنة المنصور قلاوون على صداق مبلغه خمسة آلاف دينار ، المعجل منه ألفا دينار^(١٧٠) ، كذلك يروى العيني في تاريخه المعروف باسم عقد الجمان أن أبا بكر بن أرغون النائب تزوج باحدى بنات السلطان الناصر محمد بن قلاوون

(١٦٧) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١٧٠ ؛ ابن نفري بردى ، المنهل الصافى ، ج ٢ ، ورقة ١٧٥ .

(١٦٨) المقرئى ، السلوك ج ٢ ، ص ٣٤٣ ؛ ابن نفري بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٠٠ .

(١٦٩) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٢٣ .

(١٧٠) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٢٣ ؛ ابن كير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٧٠ ؛ الموننى ، ديل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١١٩ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٥١ - ٥٣ ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٧ ، ورقة ٦٠٢ ؛ المقرئى ، المقفى ، ورقة ١٧٣ .

على صداق جملته أربعة آلاف دينار مصرية (١٧١) .

وجرت العادة ، أنه في حالة زواج أحد أبناء أو بنات السلاطين أو الامراء أو أعيان الدولة ، أن تكتب له خطبة صداق تكون في الطول والقصر حسب مكانة صاحب العقد (١٧٢) . ويروى ابن الحاج أن كثيرا من الناس في عصره فضلوا عقد الأنكحة في المساجد، فيجتمعون فيها ومعهم المباخر المفضضة التي يحرقون فيها البخور ، وبعد العقد ينصرفون في حفل كبير (١٧٣)، ولعل ذلك راجع الى قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « اعلنوا النكاح واجعلوه في المساجد » (١٧٤) . بيد أن هذه العادة لم تكن وقفا على أفراد الشعب وعامته ، فقد درج أفراد طبقة المماليك أيضا على عقد الأنكحة في المساجد كما جاء في تاريخ مصر لأبن اياس الذي ذكر أنه في صفر عام ١٤٨٧/١٨٨٣ « كان عقد جانم الشريف قريب السلطان قايتباي على ابنة العلاء على بن خاصبك، وكان العقد بجامع القلعة ... » (١٧٥) .

(١٧١) العيني ، عقد الجمان ، ج ٣٢ ، ورقة ٣٣٤ .

(١٧٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٠٠ .

(١٧٣) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

(١٧٤) سعاد ماهر ، عقود الزواج ، ص ١٣ .

(١٧٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

وبعد عقد القران تأتى الخطوة الثالثة ، وهى اعداد الشوار ونقله الى منزل الزوجية ويتناسب الجهاز مع مركز أصحاب العروس ومدى ثرائهم ، ففي أفراح السلاطين والامراء ، كان الشوار يفوق دائما الوصف . وحسبنا أن تشير هنا الى ما رواه المؤرخون بصدد جهاز بنت السلطان الناصر محمد بن قلاوون عندما تزوجت بولد أرغون نائب السلطنة بديار مصر ، التى جهزها السلطان « جهازا عظيما : منه بشخاناه ، ودائرييت ، وستارات ... طرز ذلك بثمانين ألف مثقال ذهب مصرى ، سوى مافيه من الحرير وأجرة الصنّاع . وعمل سائر الاوانى من ذهب وفضة ، فبلغت زنة الاوانى المذكورة ما ينيف على عشرة آلاف مثقال من الذهب . وتناهى فى هذا الجهاز ، وبالغ فى الانفاق عليه حتى خرج عن الحد فى الكثرة ، فانها كانت أول بناته ، ولما نصب جهازها بالكبش نزل من قلعة الجبل ، وصعد الى الكبش حيث أعد منزل الزوجية وعايته ورتبه بنفسه ... » (١٧٦) . أما عن شوار ابنة الأمير بكتمر الساقى فيروى المقرئى أن جهازها خرج من قصر أبيها الأمير بكتمر وكان عدة الجمالين ثمانمائة حبال :

(١٧٦) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ ؛ خطط ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ؛ اقبضا الخاصكى ، التحفة ، ورقة ١٢٠ ؛ العينى ، عقد الجمان ، ج ٣٢ ، ورقة ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

المساند الزركش على أربعين حمالا عدتها عشرة مساند ،
والمدورات ستة عشر حمالا ، والكراسي اثنا عشر حمالا ،
وكراسي لطاف أربعة حمالين ، وسلم الدكك أربعة حمالين ،
والدكك والتخوت الابنوس المفضضة والموشقة مائة واثنين
وستين حمالا ، والنحاس الكفت ثمانية وأربعين حمالا ،
والصيني ثلاثة وثلاثين حمالا ، والزجاج المذهب اثني عشر
حمالا ، والنحاس الشامي اثنين وعشرين حمالا ، والبعلبكي
المدهون اثني عشر حمالا ، والخونجات والمحافي والزبادي
والنحاس تسعة وعشرين حمالا ، وصناديق الحوائج
خاناة ستة حمالين ، وغير ذلك تنمة العدة ، والبغال المحملة
الفرش واللحف والبسط والصناديق التي فيها المصاغ تسعة
وتسعين بغلا ، ومع ذلك فلما نصب ورآه السلطان الناصر محمد
والد العريس لم يعجبه وقال أنه رأى شوار بنت الأمير سار
أحسن من هذا وأكثر والتفت الى الاميرين طقزدمر وأقبغا قائلا
« جهزا ابنيكما ولا تبخلا كما صنع بكتمر (١٧٨) » . كذلك

(١٧٧) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤١٨ ؛
الصفدي ، أعيان العصر ، ج ١ ، ورقة ١١٨ ب ؛ المقريري ،
خطط ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

(١٧٨) الصفدي ، أعيان العصر ، ج ١ ، ورقة ٣٣ ب ؛
ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤١٨ ؛ ابن تغري بردي ،
المنهل الصافي ، ج ٢ ، ورقة ٣٣ ب ، ١٢٤ .

يروى أحد المعاصرون أن جهاز خوند ستيتة ابنة السلطان الأشرف شعبان حمل على خمسمائة حمال ، وعشرة قطر بغال ومشى الحجاب والعسكر معه ، كما أشار أيضا الى جهاز فاطمة ابنة الأمير منجك ، الذى حمله ثلاثمائة حمال ، وسبعون بغلا فى موكب كبير سار فيه الأمراء المقدمون والمساليك فى أفخر ثيابهم وبأيديهم الشموع^(١٧٩) .

ولم ترض علينا المصادر بذكر قيمة تكاليف اعداد الشوار التى كانت تبلغ فى كثير من الأحيان بضعة آلاف من الدنانير ، فقد روى أحد المؤرخين أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون جهز احدى عشرة ابنة له بالجهاز العظيم ، فكان أقلهن جهازا بثمانمائة ألف دينار : « منها قيمة بشخافه ودائرة بيت ومايتعلق به بمائة ألف دينار ، وبقية ذلك ما بين جواهر ولالىء وأواني ونحو ذلك^(١٨٠) » . كما ذكر أيضا أن جهاز خوند فاطمة ابنة الأمير منجك بلغ تكاليف اعداده ثمانمائة ألف مثقال ذهبا^(١٨١) .

(١٧٩) المقرئى السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٦١ ؛ ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٣٥١ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ١٤٥ ؛ ابن حجر ، انباء القمر ، ج ١ ، ص ٣٧٩ .

(١٨٠) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ ، ٥٣٦ .

(١٨١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٥١٤ .

على حين بلغت تكاليف شوار ابنة الأمير سلار مائة وستين ألف دينار (١٨٣) .

أما اذا لم يكن أصحاب العرس من الأمراء ، فانه يحتفل بنقل الشوار في حفل يشترك فيه الأقارب والمعارف . وجرت العادة أن يكون في ذلك الشوار سبع دكة من فضة ، ودكة نحاس مكفت ، ودكة من نحاس أبيض ، ودكة من خشب مدهون ، ودكة من صيني ، ودكة من بلور ، ودكة كداهي وهي آلات من ورق مدهون تحمل من الصين (١٨٣) . والدكة عبارة عن شيء يشبه السرير يوضع فوقها أواني مختلفة من كاسات وأطباق وسرج وأحقان وأشناف وطشت وأبريق ومبخرة (١٨٤) ، هذا عدا الشطرنج وغيره من ، الكماليات التي تحمل مع الجهاز (١٨٥) .

وفي ليلة الزفاف تقام وليمة كبيرة للأهل والأصدقاء تسمى

-
- (١٨٢) ابن قاضي شهبة ، الاعلام بتاريخ الاسلام ، ج ٢ ، ورقة ١٤٩ ب ؛ المقریزی ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٩ .
(١٨٣) المقریزی ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٠٥ ؛ ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ١٦٧ .
(١٨٤) زكي حسن ، فنون الاسلام ، ص ٥٥٣ - ٥٥٤ .
(١٨٥) تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٣٤٠ .

وليمة العرس ، وهما في الواقع وليمتان احدهما للنساء ، وتقام في بيت العروس والأخرى للرجال وتقام في بيت العريس وأحيانا تقام الوليمنتان في بيت واحد . وجرت العادة أن يعد صاحب العريس « ما ليس من عادته أن يطبخه مما هو فوق طاقته ، فتري والد العريس وأم العروسة أو أم العريس يبيع أحدهم ثيابه في عمل الطعام أو يقترض غالب ذلك ولو بالربا ... فيعمل ذلك الطعام متكرها له متفاخرا به (١٨٦) » . وبعد الطعام - أى في المساء - يخرج العريس قاصدا بيت العروس في موكب كبير يخفف به الأهل والأصدقاء . وبوصول العريس الى منزل العروس يبدأ حفل الزفاف . وتفيض المراجع المعاصرة بأخبار أفراح الماليك ، وما تنطق به هذه الافراح من ثروة واسراف . من ذلك ما يرويهِ المقرئى عن فرح احدى بنات السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وكيف أن السلطان « عمل المهم مدة ثلاثة أيام حضره نساء الأمراء بتقادمهم وهى ما بين أربعمئة دينار ، سوى تعابى القماش ، الى مائتى دينار » وكان فيه ثمانى جوق من مغانى القاهرة وعشرون جوقة من مغانى السلطان والأمراء ، خص كل جوقة من جوق القاهرة خمسمئة دينار ومائة وخمسون

(١٨٦) زكى مبارك ، التصوف ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .

تفصيلة حريز ، ولم يحصل ما حصل لجواري السلطان والأمراء
لكثرته . فلما انقضى المهم بعث السلطان لكل من نساء الأمراء
تعبية قماش على قدرها ، وعم جميع الامراء بالخلع ، وفضل
من الشمع بعد ما استعمل منه مدة العرس ألف قنطار (١٨٧) .
وما يذكره أحد الكتاب بصدد فرح ابنة الأمير يكثر الساقى
حينما أمر نفس السلطان « باحضار جميع من بالقاهرة ومصر من
أرياب الملهى الى الدور السلطانية ، ووقع الشروع فى عمل
الخوان فأقام المهم سبعة أيام بلياليها . وأستدعى السلطان حريم
جميع الأمراء اليه ، فكان أمرا عظيما . فلما كانت ليلة السابع
منه جلس السلطان على باب القصر ، وتقدم الأمراء على قدر
مراتبهم واحدا بعد واحد ، ومعهم الشموع ، فاذا قدم الواحد
ما أحضره من الشمع قبل الأرض وتأخر . وما زال السلطان
بمجلسه حتى انقضت تقادهم ، فكانت عدتها ثلاثة آلاف وثلاثين
شمعة زقتها ثلاثة آلاف وستون قنطار ، فيها ماعنى به ونقش
نقشا بديعا تنوع فى تحسينه ، فكان أبهجها شمع الأمير علم الدين
سنجر الجاولى ، فانه أعتنى بأمرها ويعث الى عملها بدمشق ،

(١٨٧) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ، السلوك ، ج
٢ ص ٢٤٩ ؛ العينى ، عقد الجمان ، ج ٣٢ ، ورقة ٣٩٠ .

فجاءت من أبداع شىء... حتى اذا كان آخر الليل نهض السلطان وعبر الى حيث مجتمع النساء ، فقامت قساء الأمراء بأسرهن ، وقبلن الأرض واحدة بعد أخرى ، وهى تقدم ما أحضرت من من التحف الفاخرة والنقود حتى انقضت تقادمن جميعا . ورسم السلطان برقصهن عن آخرهن فرقصن أيضا واحدة بعد واحدة ، والمغانى تضربن بدفوفهن ، وأنواع المال من الذهب والفضة وشقق الحرير يلقي على المغنيات ، فحصل لهن ما يجعل وصفه ، ثم زفت العروس . فكان هذا العروس من الأعراس المذكورة ، ذبح فيه من الغنم والبقر والخيول والأوز والدجاج ما يزيد على عشرين ألفا ، وعمل فيه من السكر برسم الحلوى والمشروب ثمانية عشر ألف قنطار وبلغت فيه ما حملة الأمير بكتمر الساقى مع ابنته من الشورة ألف ألف دينار مصرية (١٨٨) . ويحكى المؤرخ ابن اياس عن زواج خوند فاطمة الخاصبكية بالعاذل طومان باى انها « خرجت من بيتها الذى بقنطرة سنقر وهى فى محفة زركش ، مشت قدامها الرءوس النواب والحجاب والخاصكية وهم بالشاش والقماش ، وبقية المباشرين قاطبة ،

(١٨٨) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ - ٦ ٣ ؛ ابن تفرى بردى ، النجوم ، ص ١٠٠ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٥٧ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٠٦ ؛ ابن حبيب ، درة الاسلاك ، ج ٢ ، ورقة ١٩٣ ب .

وأعيان الطواشية ، وكان معها من نساء الأمراء والأعيان نحو .
من مائتى امرأة . فلما وصلت الى باب الستارة ، أجد أبواب
القلعة ، فرشت لها الشقق الحرير تحت حافر بغال المحفة ،
ونشرت على رأسها خفائف الذهب والفضة ، وحمل الزمام القبة
والطير على رأسها ، حتى جلست بقاعة العواميد ، والشبابية
السلطانية عمالة . وكان يوما مشهودا بالقلعة ، واستمر المهم
عمال بالقلعة ثلاثة أيام ، وكان لها موكب حافل لما شقت من
الصليبة ، وكان قدامها المجمع السلطاني ، ، والبقيج وطشت
وابريق بللور ، ومدورة زركش ، ولم يتفق هذا الموكب لأحد
من الخوندات قبلها (١٨٩) » .

وتحرص المدعوات اللاتى يحضرن الفرح على ارتداء
الملابس الفاخرة والتعلى بالمجوهرات الثمينة (١٩٠) . وكثيرا
ما تباهى المدعوون والمدعوات بالمبالغة فى تقديم النقوط الى
المغاني وتقديم الهدايا من الشمع (١٩١) ، والتحف الفاخرة ،
والخراف والسكر والأوز وغيرها الى أصحاب العرس (١٩٢) .

(١٨٩) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣

(١٩٠) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 157.

(١٩١) Zetterstéen, . Geschichte, p. 185.

(١٩٢) ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

ويبدو أن تلك الهدايا اعتبرت ضريبة أو دينا لا بد من دفعه ،
حتى تضايق بعض الأمراء من الممالك في وقت من الأوقات
بسبب كثرة الأفراح وقالوا كما جاء على لسان المؤرخ ابن تغرى
بردى « هذه مصادره (١٩٣) ! »

أما العروس فكانت تتصدر ذلك الحفل بعد أن تستكمل
رينتها وبهاءها ، اذ تقوم الماشطة بتكحيلها وتمشيطها ونحفيها ،
كما يفهم من قصص ألف ليلة وليلة ، ثم الباسها أفخر الثياب
المطرزة ، وغالبا ما تضع على رأسها شربوشا (١٩٤) وهو أشبه
بالتاج الذى ترتديه عرائس اليوم . ومن العادات الغريبة في
القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى ، ان الناس كان
من عاداتهم فى الأعراس أن يلبسوا العرائس لباس الرجال
من جندى وقاض وغيرهما (١٩٥) . وفى نهاية الاحتفال اعتاد
العريس أن يأخذ عروسه من يدها . وعندئذ تقبل العروس يد

(١٩٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٢١٢ .

(١٩٤) تاريخ ابن العرات ، ج ٩ ، ص ١٤٥ ؛ ابن تغرى
بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ٤٧٩ ؛ ابن دنان . طلف الخيال ،
ص ١٣٦ .

(١٩٥) زكى مبارك ، التصوف . ج ١ ، ص ٣٤٧ : السمرانى .
لواقح الانوار ، ص ٣٣١ .

زوجها^(١٩٦) . ويبدو أيضا أن العادة جرت في أفراح ذلك العصر أن تقدم العروس لزوجها — في اللحظة التي تجلى عليه — سيفاً فاخراً تمسكه من طرفه فيتناوله العريس من مقبضه^(١٩٧) . كما اعتاد العريس في أغلب الأحيان أن يعلق في شربوش العروس بعض الدنانير ، فقد أشارت بعض المصادر المملوكية أن الأمير منطاش علق بشربوش خوند ستيتة ليلة أن زفت إليه، دينار زنته مائتان مثقال ، ثم دينار زنته مائة مثقال وذلك بعد أن جلثها عليه خوند سمراء زوجة السلطان الأشرف شعبان^(١٩٨) .

ورغم أن مراجع العصر المملوكي قد ضنت علينا بالكثير من التفاصيل بصدد أفراح المصريين وحفلات عرسهم ، فإن قصص ألف ليلة وليلة تؤكد أن كثيرا منهم عمد الى المبالغة وأن ما فعلوه لم يكن في الواقع سوى صورة مصغرة لما اعتاد أن يفعله سلاطين المماليك وأمرائهم في أفراحهم^(١٩٩) .

(١٩٦) سيرة الظاهر بيبرس ، ج ٩ ص ٢٣ .

Dopp, Le Caire Vu

BSRGE, XXII p 140 (١٩٧)

(١٩٨) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٦١ ؛ ابن نعري بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٣٥١ ؛ ابن حجر ، انباء العمر ، ج ١ ، ص ٣٧٩ ؛ تاريخ ابن القرات ، ج ٩ ، ص ١٤٥ .

Mardrus, Le Livre des mille nuits, I, pp. 192, (١٩٩)

205, 209, 212, 214 ; Frescobaldi, Viatic, pp. 167-168 ; Dopp: Le Caire

Vu , BSRGE, XXIII, pp 129-140

أما عن الفلاحين وأفراحهم ، فتشير بعض المصادر الى أنهم اعتادوا أن يطوفوا بالعريس في أنحاء القرية وسط ضرب الطبول ومدح المنشدين ، وحوله « الجدعان تخطب بالنبايت » ، ولا يزالون به حتى يصل الى بيت العروس حيث يقام هناك حفل صاخب يشترك فيه أصحاب الرباب ، والنساء يزغردن وينشرن الملح على العروس خوفا عليها من الحسد ، بعد أن تكون قد استكملت زينتها ، ثم يجلسوها على شيء مرتفع عال ، ويأتى اليها الطبال وينشدوها الأشعار مما هو مناسب لها مثل « يا عروسة يا أم غالى ، انجلى ولا تبالى » وأيضا « يا عريس قم خذ عروستك ، واطلع بها فوق العلالى ، وافرشوا القبة وناموا فوقها جناح الليالى... » ، ثم أنهم يجتمعوا حول العروس وينادى بينهم رجل بيده شعلة من قماش ، « هاتوا النقوط ، صاحب العرس بقى فى أمان ، هاتوا يانسا ، يا جدعان » . فيعطيه الشخص منهم الدرهم والدرهمين والبعض يرمى له النصف أو النصفين ، وعقب ذلك يدخلون العروسين الى البيت ويغلقوا عليهما الباب ، ويدقوا لهم بالحجارة على الاعتاب... وبعد ثلاثة أيام يخرجوا العروس بالتمام ويكشفوا عن وجهها للمرة الثانية « ويجعلوها للناس شهرة يأخذوا أيضا النقوط من الناس (٢٠٠) » .

(٢٠٠) الشربيني ، هز القحوف ، ص ٦ - ١٠ ،
Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pp 162-168

كذلك وجد في القصص الشعبي المعاصر بعض اشارات
لأفراح الأعراب والبدو ، عندما ترقص الجارية وسط جموع
الرجال ، ثم تطوف عليهم وفي يدها الرق لتجمع « عوايدها من
العرب (٢٠١) » .

وعن أفراح أهل الذمة ، يذكر المؤرخ ابن حجر في تاريخه
المعروف باسم ابناء القمر : أنه سمح لهم في عصر المماليك بإقامة
أفراحهم بالملاهي والمغانى على عادتهم (٢٠٢) ، وإن كان قد أغفل
أن يشير الى طبيعه هذه العادات .

والحديث عن الزواج على عصر سلاطين المماليك يجرنا
أيضا الى الاشارة الى ظاهرة تعدد الزوجات ، فعلى الرغم من
أن الاسلام لم ينشئ هذا النظام ولم يوجبه ، ولم يستحسنه ،
فإن هذه الظاهرة قد برزت هذا العصر شأن بقية العصور
الأخرى السابقة واللاحقة ، لذلك فإن دراستنا هذه لا تسعى
الى البحث عن أسباب هذه الظاهرة بقدر ما تهدف الى محاولة
رسم صورة لها . فقد ذاعت ظاهرة تعدد الزوجات لدى طبقة
المماليك وحسبنا أن نذكر في هذا المجال أن السلطان الناصر

(٢٠١) سره الظاهر بيرس ، ج ٨ ، ص ٩ .

(٢٠٢) ابن حجر ، ابناء القمر ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

محمد بن قلاوون كان متزوجا من أربع زوجات وشغف أيضا بحب الجوارى ، فكتب الى أعمال مصر ببيع الجوارى المولدات وحملن اليه ، وأخذهن حتى من المغنيات ، فزادت عدتهن عنده على ألف ومائتى وصيفة (٢٠٣) . ويروى أيضا الرحالة الفلورنسى سيجولى الذى زار مصر على عصر السلطان برقوق ، أن هذا الأخير كان متزوجا من سبع نساء وكان يمتلك عددا ضخما من الجوارى والمحظيات يصعب على المرأ فى بعض الأحيان حصره (٢٠٤) . ونسمع أيضا أن عدد زوجات السلطان جقمق قد تجاوز هذا العدد (٢٠٥) ، وعن تمسك أمراء المماليك بفكرة تعدد الزوجات . فقد أشار المؤرخ المملوكى ابن تغرى بردى أن الأمير سيف الدين كراى كان اذا سافر يصحب معه جواريه « وكان له أربع زوجات وثلاثون حظية من جواريه (٢٠٦) » . كذلك أصر العربان على فكرة تعدد الزوجات والاكثار من الأبناء

(٢٠٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٤٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٢١٠ ؛ حوادث الدهور ، ص ٢٢٩ .

(٢٠٤) Schefer, Voyage d'Outremer, p XIII, Fresco-baldi, Vislt, p 172.

(٢٠٥) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٢ ، ورقة ١٩٥ أ ، ب ؛ ابن اياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٢٠٦) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ج ٥ ، ورقة ١٤٢

حتى بلغت نساء وأبناء أحد مشايخهم ثمانين ولدا وأربع مائة امرأة (٢٠٧) . ويفهم من بعض المراجع المعاصرة أن الاعرابى فى عصر الماليك احتفظ بحق الزواج بمن يشاء من بنات الفلاحين، وإذا منع فلاح ابنته ممن يطلبها من الأعراب فمصييره القتل (٢٠٨) . وعلى العكس لم يسمح اعرابى لفلاح الزواج من ابنته (٢٠٩) .

ومع هذا فقد جاء فى نفس المصادر أن السلطان الأشرف اينال تزوج بخوند زينب بنت خاصبك « فى امرته ولم ينفك عنها ولا بعد سلطنته حتى مات » ولم يتزوج عليها ولا تسرى وكل أولاده المؤيد أحمد وغيره منها بحيث انفرد عن سائر الملوك بذلك ، كما انفردت هى عن سائر الخوندات بالمزيد من نفوذ الكلمة ووفور الحرمة (٢١٠) ، ونقرأ أيضا عن الشمس الأمشاطى لم يتزوج بغير عرائم والدته أبى الفوز وأنه قد حفظ

(٢٠٧) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٥٧ .

(٢٠٨) سيرة الظاهر بيبرس ، ج ٨ ، ص ٩ .

(٢٠٩) Lane, The Modern Egyptians, p 195

(٢١٠) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٢٢٩ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٤٤ ؛ ابن اباس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٦٤ ، ١٨٩ .

صحبتها وقدم عشرتها بحيث رام منه غير واحد التزوج عليها
شأن عادة الرجال في تلك الفترة ، « فامتنع منه وبل من التسرى
وغبطها النساء بهذا (٢١١) » .

مما تقدم نستطيع القول بأنه اذا كانت ظاهرة تعدد
الزوجات قد شاعت على عصر سلاطين المماليك ، فقد وجدت
فئة غير قليلة من الرجال ، ممن رفضوا التمسك بهذه الفكرة ،
واكتفوا بالاحتفاظ بـ زوجة واحدة عملاً بالآية الكريمة « وان
خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ، ولشدة أعباء التزويج ، فقد كتب
أحد المعاصرين على سبيل المماجنة : « لو كانت الشركة تصح
في الزوجات لشاركت في جزء من أربعة وعشرين جزءاً » ، وقال
آخر لصديق له : « ان استطعت أن تكتفى في هذا الزمان
بنصف امرأة فافعل (٢١٢) » . بل لعل أبدع ما قيل في هذا
الشأن ، تلك الأبيات التي صاغها ابن منصور أحد شعراء
عصر المماليك بصدد قسوة الزواج وأعبائه :

يا طالب التزويج افك بالذي

تبغيه منى جاهل معذور

(٢١١) المسخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٨٤ .

(٢١٢) الأدفوي ، الطالع السعيد ، ص ٢١٨ .

هل أبصرت عيناك صاحب زوجة .

الا حزينا ما لديه سرور (٢١٣)

ولكن كيف تقبلت المرأة على عصر سلاطين المماليك ظاهرة تعدد الزوجات ، وكيف رضيت لنفسها أن يشاركها في رجلها ، العديديات من الحظايا والجوارى رغم ما اشتهرت به من الغيرة الأزلية ، تلك الغيرة التي دفعت بشجر الدر ، أولى سلاطين تلك الدولة ، أن تتربص بزوجها الملك المعز أيك حتى دخل الحمام ، ورتبت له من دخل عليه ولكمه وأرماء أرضا ، « والجوارى ترفس فيه وهى تضربه بالقبفاب الى أن مات وهو يستغيث اليها ويتضرع » ، وكل ذلك لأنها « غارت منه لما خطب ابنة الأمير لؤلؤ صاحب الموصل (٢١٤) » .

رغم قلة الاشارات التى عثرنا عليها فى بطون كتب هذا العصر ، فإنه يمكننا القول أن نساء هذا العصر قد اعتدن ، فيما يبدو ، تقبل هذا الوضع دون أى اعتراض ، بدليل ذلك

(٢١٣) ابن شاکر ، فوات الوفیات ، ج ١ ، ص ١٦ .

(٢١٤) المعینى ، عقد الجمان ، ج ٢٧ ، ورفه ٢٨٩ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٧ ؛ ابن ساکر ، عیون التواریخ ، ج ٢٠ ، ورقة ٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ .

الوفاق العجيب الذى نلاحظه بين الضرتين فى قصة قمر الزمان ابن الملك شهرمان ، وفى قصة علاء الدين أبى الشامات — من قصص ألف ليلة وليلة • بل والعجيب أن الصورة المألوفة عن كره الضرتين ، لا نجدها فى الليالى (٢١٥) ، وكل ما هنالك اشارات بعيدة جدا عن غيرة الزوجة من السرية أو العكس (٢١٦) ، وقد نسمع أن شخصا اشترى جارية لخدمته فتحقد الجارية على سيدها وتتملكها الغيرة وتعمد الى قتلها حتى يخلو لها وجه سيدها (٢١٧) •

كذلك لم تجد المرأة أية غضاضة ، أو مرارة ، أو حرجا ، أو موقفا غير عادى ان هى أقدمت على الزواج بعد وفاة زوجها ، أو بعد طلاقها ، حتى ولو كانت زوجة لسلطان ، أو أما لسلطان ، وكثيرا ما تزوجت بسلطان آخر أو بأحد الأمراء ، أو

(٢١٥) . Mardrus, Le Livre des mille nuits, III, pp. 76,

102.

(٢١٦) الجوهرى ، انباء الهصر ، ورقة ١٨٦ ١ ؛ ابن تفرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٣١ ؛ سهر القلماوى ، ألف ليلة وليلة ، ص ٣٢١ •

(٢١٧) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٧٢ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٣٤ •

حتى رجل كان مملوكا لزوجها السابق . واذا كانت هذه هي عادة الخوندات من زوجات السلاطين ، فلا غرابة ان اتبعها كذلك زوجات الأمراء وغيرهن من نساء كبار موظفي الدولة . ويحدثنا التاريخ ان السلطان الاشرف برسباي تزوج بأرملة السلطان الظاهرة خشقدم الأحمدي ، وأن السلطان الناصر محمد بن قايتهاي تزوج بمطلقة الأمير كرتباي فائب صفد ، وأن السلطان طومان باي تزوج بخوند فاطمة بنت العلي بن خاصبك ، التي كان قد سبق لها الزواج بالسلطان الاشرف قايتباي (٢١٨) ، وأن الأمير الجاي اليوسفي تزوج بخوند بركة في أيام سلطنة ولدها الاشرف شعبان (٢١٩) وكثيرا ما فقرأ عن بعض نساء هذا العصر ممن تزوجن أكثر من مرتين . فقد أشار السخاوي الى أن خوند خديجة ابنة الأمير حاجي البيسري

(٢١٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢١١ ، ٢٢٤ ، ٢٤٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ؛ رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٣٧٥ .

(٢١٩) المقرئزي ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٢١٠ ، ٢١٢ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٧ - ٤٧٥ ؛ انباء الفمر ، ج ١ ، ص ٢٨١ ، ٢٩٥ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٣٨٠ ؛ المنهل الصافي ، ج ٢ ، ورقة ٨ ب ، ٧١ ب ؛ السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٨٧ .

تزوجت ست مرات (٢٣٠) ، والى أزواج ست الخلفاء ابنة
الخليفة المستنجد بالله الخمسة (٢٣١) ، والى الأزواج الأربعة
التي اقترنت بهم خوند قنقباى الواحد تلو الآخر (٢٣٢) ، والى
أزواج سعادات بنت الشيخ البوشى ، الثلاثة (٢٣٣) .

والواقع أننا لسنا هنا بحاجة الى تعليل اقدام المرأة
على الزواج عدة مرات ، لأننا نعلم تمام العلم ، أن المرأة على
عصر سلاطين المماليك ، شأنها فى هذا شأن نساء العصور
الوسطى عامة ، كانت دائما بحاجة الى من يحميها ، كما نعرف
أيضا أن المرأة المطلقة والأرملة كان ينظر اليها نظرة خاصة فى
المجتمع ، نظرة ملؤها الشك والريبة فى أغلب الأحيان ، بل
لا زلنا نرى هذه الصورة فى مجتمعنا الحديث حتى الآن ، لذلك
لا عجب ان استحسن بعض قضاة هذا العصر حبس المرأة اذا

(٢٢٠) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٢٥ .

(٢٢١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ ؛
السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٥٥ .

(٢٢٢) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ١١٧ .

(٢٢٣) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٦٢ - ٦٣ .

حبس زوجها « صيانة لها من الفجور » (٢٢٤) ولا غرابة أيضا ان أقدمت الدولة على العناية بالمنشآت الاجتماعية التي خصصت لاستقبال الأرمال أو المطلقات مثل رواق أو رباط البغدادية الذي سبق أن أشرنا اليه والذي كانت تودع فيه النساء اللاتي طلقن أو هجرن ، حتى يتزوجن أو يرجعن الى أزواجهن ، صيانة لهن ، لما كان فيه من شدة الضبط ، وغاية الاحترار ، والمواظبة على وظائف العبادات حتى أن خادمة الفقيرات به كانت لا تمكن أحدا من استعمال ابريق بيزبوز ، وتؤدب من خرج عن الطريق بما تراه (٢٢٥) . كذلك يجب ألا ننس أن المرأة كانت دائما بحاجة الى من يرعاها ويطعمها ويوفر لها الحياة الآمنة المطمئنة . ومع ذلك فهناك من نساء عصر المماليك من رفضن الزواج بعد طلاقهن أو وفاة أزواجهن مثل غازية خاتون ابنة السلطان المنصور قلاوون (٢٢٦) ، وزوجة الأمير قجليس (٢٢٧) ، وخوند فرح ابنة الأمير سودون

(٢٢٤) ابن الشحنة ، لسان الحكام ، ورقة ١٢ ب .

(٢٢٥) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٤٢ ؛ السلوك ، ج ٢ ص ٦١١ .

(٢٢٦) مرعى بن يوسف ، نزهة الناظرين ، ورقة ٦٩ ب ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٢٧٢ .

(٢٢٧) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ .

الفقيه (٢٢٨) ، وخوند زينب أم المؤيد أحمد (٢٢٩) وغيرهن من نساء عامة الشعب مثل تجار أم عبد الله التي رفضت الزواج بعد وفاة زوجها سراج الدين الخروبي ، وفضلت أن تعيش أرملة الى يوم وفاتها (٢٣٠) .

(٢٢٨) محمد مصطفى ، صفحات لم ننشر ، ص ١٧٠ .

Wiet, Histoire Mamlouke, II, p. 173. (٢٢٩)

(٢٣٠) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ١٦ .

الفصل الخامس

الأسرة

الأسرة

إذا كان الزواج هو اللبنة الأولى في بناء الأسرة ، فإن الأخيرة هي أساس المجتمع السليم ، لذلك ينبغي علينا قبل أن نبدأ الكلام عن الأسرة على عصر سلاطين المماليك ، أن نشير الى ذلك الوعاء الذى كانت تجرى فيه الأحداث العائلية ونعنى به المنزل ، الذى كانت تمارس فيه الأسرة حياتها وتجاربها .

فقد اهتم المماليك اهتماما خاصا بقصورهم ومنازلهم ، كما يتضح من تلك البقايا القليلة التى حفظتها لنا الأيام من تلك القصور والمنازل التى وصلتنا من العصر المملوكى . ولم تقتصر تلك العناية على هندسة البيوت وتنظيمها وانما امتدت أيضا الى تجميلها وزخرفتها ، كما يتضح ذلك من بقايا قصر الأمير طاز (٢٣١) ، ومن أطلال قصر الأمير بشتاك التى بدت سقوفه منقوشة بالذهب وقد توسطت فناءه فسقية بديعة من الرخام وكسيت بعض جدرانه بالأخشاب ذات الزخارف المخروطة

(٢٣١) كمال سامح ، العمارة الاسلامية ، ص ١٦٤ .

والمطعمة (٢٣٢) ، وأيضا من منزل زينب خاتون الذي أعادت
إليه مصلحة الآثار شيئا من رونقه القديم (٢٣٣) .

ومن الثابت أيضا أن أهل مصر بوجه عام اهتموا اهتماما
بالغا بتشبيد المنازل وتأثيثها وتزويدها بكل وسائل الراحة .
ويقوم من كتابات الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر على زمن
سلاطين المماليك ومن بعض قصص ألف ليلة وليلة أن هذه
المنازل كانت تبدو بسيطة في مظهرها الخارجي ، ولكنها في
الداخل مرتبة وغاية في التنسيق ، ومقسمة إلى حجرات مختلفة
ومزينة على خير صورة (٢٣٤) . ويذكر أحد المعاصرين عن أبنية
المصريين أن فيها هندسة بارعة وترتيب للغاية « وإذا أرادوا بناء
ربع أو دار ملكية أو قيسارية ، استحضر المهندس وفوض إليه
العمل (٢٣٥) » . ووصف جيهان تنو الدار التي نزل بها في مصر
أثناء زيارته لها سنة ١٥١٢/٩١٨ ضمن السفارة التي بعث بها

Pauty, Les Palais du Caire, p. 43. (٢٣٢)

Ahmad Abd ar-Raziq. La Femme, p 178 (٢٣٣)

Letts, Pilgrimage, pp. 111-112 ; Fabri, Evagatorium, III, p. 82 ; Schefer, Voyage magnifique, p. 213 , Carré, Voyageurs, I, p 3. (٢٣٤)

(٢٣٥) عبد اللطيف البغدادي ، أخبار مصر ، ص ٩٠ — ٩١

لويس الثانى عشر الى السلطان قانصوه ، فذكر ردهاتها
الواسعة وجدرانها المزخرفة بالألوان الجميلة وأبوابها ذات
المقابض المصنوعة من العاج ، هذا عدا الفسقية التى توجد
فناء الدار والتى تحيط بها الأشجار الباسقة (٢٣٦) .

والواقع أنه لا يعنينا هنا وصف قصور العصر المملوكى
ومنازله ، بقدر ما يهمنا أن نشير الى أثر المرأة على عمارة هذا
العصر السكنية ، اذ كان على مهندسى العصر المملوكى أن يراعوا
حجاب المرأة أثناء تخطيطهم لهذه البيوت ، ومن ثم فقد حرصوا
على عدم تمكين أى فرد بالخارج أن يرى شيئا من داخل المنزل .
ويتضح ذلك جليا فى عمل انكسار فى مدخل الدار فينحني
الداخل من الباب الرئيسى غربا نحو دهليز ومنه ينحرف الى
فناء الدار الداخلى الذى يتوسطه . وهذا أيضا منعا من رؤية
من يجلس داخل الفناء من أهل المنزل . كذلك عمدوا الى جعل
النوافذ بعيدة عن أعين المارة أو حتى لراكبى الأبل فى الطرقات
فجعلت عالية بقدر المستطاع كما سدت بمشربيات مصنوعة من
الخشب « الخرط » الجميل وبها ثقوب تمكن من بالداخل
رؤية من بخارجه ، دون أن تسمح للفضوليين من المارة برؤية

من بالداخل من النساء . كما راعوا أيضا تقسيم الدار الى قسمين رئيسيين أحدهما بالطابق الأرضى خاص بالرجال وهو الذى عرف فيما بعد باسم السلامك وقد أعد للاستقبال واقامة الحفلات ، والآخر بالطابق العلوى وهو خاص بالحريم وقد عرف أيضا باسم الحرملك وعملوا أيضا على ايجاد مداخل ثانوية خاصة بالنساء حتى لا ترمقهم أعين الزوار حين دخولهن أو خروجهن . بيد أن كل هذا لم يكن يعنى حبس أهل المنزل من النساء فى جو مقبض غير صالح ، اذ لاحظ تافور أنه رغم حرارة الجو فى شوارع القاهرة ، الا أنه معتدل ولطيف داخل المنازل (٢٣٧) .

أما عن الحياة العائلية داخل هذه البيوت ، فلا نكاد نجد عنها شيئا فى المراجع المعاصرة يختص بطبقة الممالك ، سوى أسماء متناثرة لبعض الجوارى والنساء ، الأمر الذى جعل كثيرا من الكتاب يعتمدون على قصص ألف ليلة وليلة للوقوف على مظاهر الحياة العائلية فى تلك الفترة (٢٣٨) . ويرجع السبب فى ندرة ما وصلنا عن أحوال الممالك العائلية ، هو أن الممالك

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pp 178-179 (٢٣٧)

(٢٣٨) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١١٣ ؛
Lane — Poole, Cairo, p. 22 ; A History of Egypt, p 251.

أنفسهم لم تكن لديهم حياة عائلية بالمعنى المعروف رغم أنهم حاولوا تكوين أسر . ذلك أن أسلوب الممالك في الحياة لم يقيم على أساس وحدة الأسرة بأركانها المعروفة وهى الأب والأم والأولاد . بقدر ما قام على أساس الرقيق والممالك الذين أحلوهم في نظامهم محل الأبناء . فمن نظمهم البارزة أن الابن لا يخلف أباه في مركزه ولا يرثه في ثروته ، وإنما المملوك هو الذى كان يحل محل أسناده ويرثه حتى في الاستيلاء على حريمه (٢٣٩) . ويكفينا للتدليل على ذلك أن الأمير منهم كان لا يأكل مع أبنائه أو حريمه ، وإنما يفضل أن يأكل مع ممالكه ، وإذا رأى نارا توقد سأل عنها فيقال أن فلانا اشتهى كذا فبغضب ممن لا يأكل عنده (٢٤٠) . كذلك كثيرا ما نصت بعض الحجج الخاصة بأوقاف الممالك على أن الاستاذ أحق الناس بالتمتع بريع الوقف الذى يقفه المملوك (٢٤١) . ومن ثم فقد أصبحت الحياة العائلية لطبقة الممالك لا تقوم على العلاقة بين الرجل وزوجته وأبنائه وإنما تقوم على أساس العلاقة بين الأمير وممالكه أو بين المملوك وأستاذه .

Muir, The Mamluke or Slave dynasty, p. 225 (٢٣٩)

(٢٤٠) المقرئى ، خطط ، ح ١ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٢٤١) أنظر حجة وقف السلطان القورى (أرشيف الأوقاف

٨٨٣) .

يضاف الى هذا أن نظام التسرى وتعدد الزوجات ساعدا أيضا على أضعاف الروابط الأسرية ، اذ كان من الصعب على زوج لأربع من النساء ، ومالك للعديد من الجوارى والمحظيات أن يجد وقتا كافيا لتكريسه لنسائه ولأبنائه (٢٤٢) . كذلك كان للشذوذ الجنسي الذى ابتلى به المجتمع المصرى على عصر سلاطين المماليك أثره الفعال على العلاقات الزوجية ، لدرجة أن غالب نساء هذا العصر عمدن الى التشبه بالذكور فى ملبسهن ، كحالة منهن « لاستمالة قلوب الرجال (٢٤٣) » .

وهكذا أصبحت الحياة الأسرية لطبقة المماليك تتسم بطابع التفكك ويسودها طابع الجمود والسطحية . ومع هذا فقد وجد بين نساء هذا العصر العديداً ممن عبرن صراحة عن حبهن لأزواجهن وعن وفائهن لأولئك الأزواج ، رغم ما نعتوا به من صفات حب النفس والذات ، مثل غازية خاتون ابنة السلطان المنصور قلاوون التى وجدت على زوجها ، الملك السعيد بركة خان ، وجدا عظيما وتأملت لفقده ، ولم تزل باكية عليه حزينة ، ولم تتزوج بعده الى أن توفيت بعده بمدة

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, n 183

(٢٤٢)

(٢٤٣) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

طويلة (٢٤٤) ، وزوجة السلطان الاشرف خليل بن قلاوون التى
عمدت بعد مقتل زوجها الى جمع « نوائح كثيرة تنوح على
السلطان ... وحضرت مع سائر الخدام والجوار الى تربته ...
ومنهن جوق من النوائح المختلفة الأصوات ، وكل واحدة منهن
تنوح بقول مختلف فى كلام النساء . فأقمن ست ليالى كل ليلة
من العشاء الى السحر الى أن أفلقت الناس ، وأبكت العيون ،
وأوجعت القلوب » . ولم تكتف بهذا بل التزمت ألا تترك
حزنها ولا ما هى فيه من هذا الأمر حتى « ترى قاتل زوجها
والموافق عليه مسمرا مشهورا (٢٤٥) » . كذلك لم تضن علينا
المصادر المملوكية بأخبار النساء اللاتى كن يحتفلن بعودة
أزواجهن اليهن بعد غياب طويل اذ جاء فى تاريخ المقرئى بصد
عودة الأمير ملكتمر الحجازى من سجنه بالاسكندرية عقب
مقتل الأمير قوصون أن خوند تتر زوجة الأول استقبلت
« زوجها الأمير ملكتمر بجواريزها وخدامها ، ومغائيا تضرب

(٢٤٤) الذهبى ، تاريخ الاسلام ، ج ٢١ ، ورقة ٧٣ ؛
اليونينى ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٤ ؛ تاريخ ابن القرات ،
ج ٧ ، ص ١٦٦ ؛ مرعى بن يوسف ، نزهة الناظرين ، ورقة ٦٩
ب ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٢٢ ؛ ابن عبد الظاهر ،
تشرىف الأنام ، ص ٢٩٧ .

(٢٤٥) العينى ، عقد الجمان ، ج ٢٨ ، ورقة ٨٧ .

بالدفوف والشبابات فرحابه ، وجارتها أختها امرأة قوصون
في عويل وبكاء وصياح هي وجواريتها وخدامها ، كما كان
بالأمس لما انتصر قوصون على الحجازي والأمراء ، في بيته
الأفراح والتهاني، وفي بيت الحجازي البكاء والعويل... (٢٤٦) «

على أنه من الخطأ البين أن فرمى أغلب رجال هذه الطبقة
بالأنانية وحب الذات والاقبال على متع الدنيا ، خاصة وقد
تضمنت كتابات هذا العصر بعض الاشارات الى عدد من
الرجال ممن حاولوا التعبير عن عواطفهم نحو نسائهم وأبنائهم
مثل الأمير قجليس الناصري الذي كان يحب زوجته بنت
السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، محبة مفرطة وينفق عليها
تفقات بالغة (٢٤٧) ، والأمير صارم الدين ابراهيم بن السلطان
المؤيد الشيخ ، الذي أشار المقرئى الى حزنه الشديد على
موت زوجته خوند ستيتة بنت الناصر فرج بن برقوق (٢٤٨) ،
كما أشار السخاوى الى مدى الغم الذي أصاب السلطان

(٢٤٦) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٨ .

(٢٤٧) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ .

(٢٤٨) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٧٦ ؛ ابن دوماق ،
الجواهر الثمين ، ورقة ١٠٤ ا .

جقيق عقب وفاة حظيته سورباى الجركسية الذى « وجد عليها شديدا (٢٤٩) » .

ويحدثنا أيضا المؤرخ أبو الفداء عن حالة السلطان المنصور قلاوون عقب وفاة ابنه الصالح علاء الدين فيقول : « فوجد عليه السلطان والده وجدا عظيما (٢٥٠) » . ويذكر ابن اياس عند اشارته الى وفاة ابنة السلطان الظاهر خشقدم أنه « فى ذى الحجة ماتت للسلطان ابنة عمرها ست سنين من سريته خوند سورباى ، فتأسف عليها السلطان حتى أنه أبطل خدمة القصر فى يوم موتها (٢٥١) » ولعل فيما رواه لنا المؤرخ العيني عن الأمير قراسنقر خير مثال لنهى به حديثا عن تلك الفئة القليلة من رجال طبقة المماليك الذين عرفوا بحبهم لزوجاتهم ولأبنائهم اذ يقول : « وعندما كان قراسنقر فى ماردين تذكر

(٢٤٩) ابن تفرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٣١ ، ١٤٤ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٦٦ .

(٢٥٠) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ٧٤٤ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٢ ؛ العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٧ ، ورقة ٧١٩ ؛ Ulrich Hartmann, Mamlukenzeit, p. 24.

(٢٥١) محمد مصطفى ، صفحات لم تنشر ، ص ١٦٥ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ١١٤ .

أهله وأولاده ... فبكى حتى أبكى الحاضرين (٢٥٢) » .

هذه الاشارات لا تنفى أن مسئولية تربية الاطفال وتنشئتهم كانت تقع في غالب الأحيان على كاهل الأم التي كان عليها أن تعتنى بصغارهم وأن تسهر على راحتهم بينما اقتصر عمل الزوج على الانجاب فقط ، دون الاهتمام بما ينبجيه من أطفال . حقيقة أن المصادر المملوكية قد ضنت علينا بالمعلومات الخاصة بتربية الأطفال على عصر سلاطين المماليك ، غير أنها قد تضمنت بعض الاشارات التي تعكس لنا بوضوح مدى حب أمهات هذه الطبقة العسكرية لأولادهن ومدى خوفهن عليهم ، لدرجة اقدامهن في بعض الأحيان على اغتيال من جرؤ على تهديد حياة فلذات أكبادهن . فقد روى مؤرخو تلك الفترة أن الخاتون بنت بركة خان قامت باغتيال الأمير بيلىك ، حيث أعطته هباب فيه سكر ولينمون مسموم عندما تبادر الى سمعها أنه يعمل على عزل ابنها السعيد بركة عن سلطنة الديار المصرية (٢٥٣) . ونسمع أيضا عن خوند أم السلطان الناصر

(٢٥٢) العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٩ ، ورقة ٣٥٢ .

(٢٥٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٤ ، ورقة ٩٦ ب ؛
الدهبى ، تاريخ الاسلام ، ج ٢١ ، ورقة ٤٦ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ،
ج ٧ ، ص ٩٤ ؛ أبو الفضائل ، كتاب النهج السديد ، ص
٢٨٩ - ٢٩٠ .

محمد بن قلاوون التى حملت ابنها وقت أن كان صبيا
وخرجت الى الكرك تاركة وراءها الديار والسلطنة لتوفر
لأبنها شيئا من الهدوء بعيدا عن أعين المتأمرين على العرش ،
وان كان هذا الهدوء لم يستمر طويلا اذ سرعان ما رحل اليها
بعض الامراء بعد مقتل لاجين ليحملوا الناصر محمد الى
الديار المصرية لاعادة تنصيبه من جديد سلطانا على البلاد ،
عندئذ ظنت المسكينة أن هذا مكر منهم وأنهم أرادوا احضار
ولدها لقتله « فأبت وامتنعت ولم تعلم أن الارادة الالهية
حكمت له بالسعادة الطويلة » غير أنهم مازالوا بها حتى اجابتهم
الى طلبهم وسلمت اليهم ولدها الناصر محمد (٢٥٤) . ونقرأ
كذلك عن خوند زينب بنت خاصبك التى تركت الدور
السلطانية بالقلعة وفضلت الذهاب الى السجن لتقيم مع
ابنيها المؤيد أحمد وأخوه محمد ، بل لم تتردد لحظة فى السفر
معهما الى الاسكندرية عقب اطلاق سراحهما لتقيم عندهما
بالشفر . كما باشرت تريض ابنها محمد هناك الى أن مات
فأرسلت الى السلطان خشقدم تستأذنه فى حمل جثمانه الى
القاهرة لتدفنه الى جوار أبيه السلطان الأشرف اينال ، فرسم
لها بذلك (٢٥٥) . أما المؤرخ ابن اياس فيذكر لنا كيف أن خوند

(٢٥٤) العينى ، عقد الجمان ، ج ٢٨ ، ورقة ١٧٦ .
(٢٥٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٦٧٨ .

أصل باي أم السلطان الناصر محمد بن قايتباي تخوفت على ولدها من خاله قانصوه ، وكانت المماليك قد التفت عليه ، « فأحضرت المصحف العثماني بين يديها في قاعة العواميد بالقلعة ، وحلفت عليه أخاها قانصوه وابنها الملك الناصر بوفاء كل كل منهما لصاحبه .» (٢٥٦) ، ويصور لنا مدى حزن خوند آسية على وفاة ولدها يحيى حتى كف بصرها (٢٥٧) ، كما يحكى لنا المؤرخ المملوكى ابن تغرى بردى ما فعلته سوروباي عقب وفاة ابنتها فرح عندما نزلت الى قبرها. وأقامت النواح عليها أياما رغم أن النزول الى المقابر لم يكن بعادة الخوندات « مادامت في عصمة السلطان » ، ورغم ان هذه الابنة لم تكن قد تجاوزت الست سنوات (٢٥٨) .

ونجد أيضا في كتابات العصر المملوكى صورة الأم التى تحب ابنها وتسرف فى هذا الحب وتحمى ابنها من عقاب الوالد العادل فقد روى بعض المؤرخون أن أنوك بن السلطان

(٢٥٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٢٥٧) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ .

(٢٥٨) محمد مصطفى ، صفحات لم تنشر ، ص ١٦٥ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ١١٤ ؛ ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٥٩٣ .

الناصر محمد بن قلاوون كان قد لهى بحب أحد مغاني هذا العصر وتدعى زهرة ، عن زوجته اينة يكتمر الساقى ، حتى علمت أمه خوند طغاي بذلك ، « فلشفقتها عليه ترخصت له ، وأمكنته من هواه ... فتم بعض مماليكه للأمير آقبا بذلك ، فبلغه السلطان ، فدخل الى الدور ، واستدعى أنوك وهم بقتله بالسيف ، فمنعته أمه وجواريه (٢٥٩) » . كما نجد صورة الأم التى تحاول أن ترجع الابن عن غيه بعد وفاة أبيه حتى لا يبدد سلطانه ، كما حدث عندما أساء السلطان السعيد بركة خان الى ممالك والده المرحوم مما دفع بخاله الأمير محمد الى الاستنجد بأخته أم السلطان قائلا لها « أن ولدك هذا قد أساء التدبير واعتمد أسباب التدمير وأمسك مثل هؤلاء الأمراء ، وعول على الصغار الناقصى الآراء ، والمصلحة أن ترديه الى الصواب لئلا يفسد نظامه وتقصر أيامه ... فقامت والدته عليه وعنفته على سوء فعله وبينت له استحكام جهله ، حتى أفرج عن الامراء المذكورين وخلع عليهم (٣٦٠) » .

(٢٥٩) المقربرى ، السلوك ، ج ٢ ص ٤٩٢ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤١٨ .

(٢٦٠) المقربرى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤٥ ؛ المقفى ، ورقة ١٧٤ أ ، العينى ، عقد الجمان ، ج ٢٧ ، ورقة ٦٢٥ ؛ باربخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٩٦ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩٣ .

كذلك تتضمن كتابات هذا العصر بعض الاشارات الى الأم التي لم تتردد في أن تثار لاینها من قتلته ، اذ جاء في سلوك المقریزی أنه « في ليلة الجمعة أول شهر رمضان من سنة ٧٤٢ / ١٣٤١ نزلت أم السلطان المنصور أبی بکر من القلعة ، ومعها مائة خادم ومائة جارية لعمل العزاء ، فدخلت بيت جرکتمر بن بهادر ونهبت ما فيه ، وألقته الى من تبعها من العامة ، ففرت حرم جرکتمر منها حتى نجت من القتل (٢٦١) » الذي كان ينتظرها على أيدي هذه الأم الشائرة التي سيطرت عليها فكرة الانتقام .

وكثيرا ما قرأ في كتب العصر المملوكی عن الاحترام الزائد الذي تمتعت به الأم المملوكية من قبل أبنائها ، اذ يروى أحد المعاصرين أن السلطان الأشرف شعبان كان يحب أمه خوند بركة حبا شديدا ، وكان كثيرا البر لها الى الطرف الأقصى ، بحيث أنه كان لا يمكنه مخالفتها (٢٦٢) ، وعمر لها بالتبانة خارج باب زويلة مدرسة في غاية الحسن ، قليلة النظير (٢٦٣) ، — لازالت قائمة حتى يومنا هذا دليلا على وفاء

(٢٦١) المقربرى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٩٨ .

(٢٦٢) ابن السحنة ، الذين من كتاب المنهل ، ج ٣ ، ورقة ٧ ب ؛ ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٤١ .

(٢٦٣) المقربرى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ — ٤٠٠ .

الأبناء لأمھاتھم ، كما ذكر لنا آخر ما فعله السلطان الصالح صلاح الدين مع أمه خوند قطلوملك عندما عمل « مھما طبخ فيه الطعام بيده ، وعمل لها جميع ما يعمل في الموكب السلطاني ، ورتب لها الخدام والجواری ، ما بين جمدا رية وسقاة ، ومنھم من حمل الغاشية والقبة والطير ، وأركبھا في الحوش بزی الملك وھيئة السلطنة • وخلع وأنفق ، ووهب شيئا كثيرا من المال • ثم شد في وسطه فوطه ، ووقف فطبخ الطعام في هذا المھم بنفسه ، ومد السماط بين يديھا بنفسه ، فكان مھما يخرج عن الحد في كثرة المصروف ... (٢٦٤) » ونسمع أيضا عن ثورة السلطان فرج بن برقوق عقب وفاة أمه خوند شرين واتھم جماعة من الخوندات « بأنھم سحروھا حسدا وبغضا لأنها سارت سيرة حسنة جميلة (٢٦٥) » •

والواقع أن الحریم السلطاني كان على عصر المماليك أعظم ميادين السحر • ومرجع ذلك في رأينا الى تعدد روجات السلاطين ، فأخذت كل منھن تسعى لتكيد لغيرھا وتظهر علیھا •

(٢٦٤) المقریزی ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٩٢٩ •

(٢٦٥) ابن بغری بردی ، المنھل الصافي ، ج ١ ، ص ٢٨١ ؛

السحاوی ، الصوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٧٠ •

فاذا مات ابن السلطان أتهمت أمه احدى ضررها بأنها سحرت له (٢٦٦) واذا توفيت خوند الكبرى اتهم السلطان خوند الثانية بأنها سحرت لها (٢٦٧) . واذا اغترى السلطان مرض قامت أمه لتتهم احدى زوجاته بأنها سحرته وكثيرا ما كانت تعمل على ايقاع الحوطة على موجودها وتقوم بضرب جواربها ليعترفن (٢٦٨) . أما عامة النساء في ذلك العصر فقد حاولوا أيضا اتقاء شر السحر بكثير من العادات والأفعال المتنوعة التي كان يعملها النساء في بيوتهن من اطلاق البخور واحراق الأشياء والصور يوم الجمعة ساعة الصلاة (٢٦٩) ، تلك العادات التي لا يزال بعضها قائما بين ظهرائنا حتى اليوم .

يبد أنه في الوقت الذي أفاضت فيه المصادر المملوكية عن مدى احترام الأبناء لامهاتهم فانها قد ضنت علينا بمعلوماتها بصدد العلاقة بين الأم وابنتها وكل الذي وصلنا عن هذه العلاقة لا يتعدى تلك السطور القليلة التي سجلها لنا المؤرخ

(٢٦٦) السخاوى ، النر المسبوك ، ص ٢١٨ .

(٢٦٧) ابن بصرى بردى ، حوادث الدهور . ص ٣١ .

(٢٦٨) المقرئى ، السلوك ، ح ٢ ، ورقة ٦٦٨ ؛ سعيد

عاسور ، المجتمع المصرى ، ص ٢٤٢ .

(٢٦٩) ابن الحاج ، المدخل ، ح ٢ ، ص ٥٦ .

ابن تغرى بردى عن نزول خوند زينب بنت خاصبك من القلعة الى منزلها في بولاق لمرض أصابها بمصاحبة ابنتيها زوجة الدوادار الكبير وزوجة الدوادار الثانى حيث أقمن عندها حتى يوم شفائها (٢٧٠) الأمر الذى يشير بما لا يقبل الشك أن الابنة كانت أيضا على عصر سلاطين المماليك قريبة الى قلب الأم ، وأنها لم تكن لتتردد في ترك بيتها وزوجها وأبنائها لتكون بالقرب من هذه الأم وقت شدتها ومرضها تلك الصورة التى لا تزال نشاهدها حتى اليوم في مجتمعنا الحديث .

هذا عن المماليك ، أما عن طبقات الشعب الأخرى من علماء وتجار وعوام وغيرهم ، فيبدو أن الطابع العام للأسرة الاسلامية لم يتغير كثيرا في ذلك العصر ، سواء من ناحية مركز الأب ونفوذه على زوجته وأبنائه أو احترام الزوجة لزوجها والأبناء لوالدهم ، بدليل ما يرويه الفقيه المغربى ابن الحاج من أن العادات جرت في ذلك العصر أن الزوجة والأبناء لا يشاركون رب الأسرة في الأكل من وعاء واحد ، بل « للرجل طعام خاص به وزبديّة خاصة به وكور خاص به » (٢٧١) ، وما جاء في القصص المصرى من ألف ليلة وليلة عن الحياة العائلية

(٢٧٠) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٢٢٦ .

(٢٧١) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢١٦ .

وعن معاملات الزوج لزوجته ، وعن حب الأم وعطفها ، وعن سلطة الأب في البيت ، وعن مدى احترام الرجل لزوجته ، اذ نرى أن الأب في قصة قمر الزمان عندما يعزم على تجهيز متجر لولده ، لا يفعل شيئا قبل أن يستشير زوجته في الأمر ، « لأنه يدين لها بالحب والاحترام » (٢٧٢) . وعلى الرغم من قلة الاشارات التي تتحدث عن الحياة العائلية عند الشعب المصري ، فاننا نلاحظ أن أغلبها يعبر دائما عن الشاء والتقدير من جانب الزوج لزوجته ، فالشعراني وهو من رجال الدين المحافظين — لا يتمالك شعوره نحو زوجته فيثنى عليها ثناء فياضا (٢٧٣) وعمر ابن عيسى أحد فقهاء صعيد مصر لم يستطيع أن يخفى حزنه على وفاة زوجته « وكان يتأوه كثيرا ونظم عدة قصائد ، ولم يزل كئيبها الى حين وفاته » (٢٧٤) . ويحكى المؤرخ ابن حجر في هذا المعنى أن بعض العوام قد شئق نفسه عام ١٤٢٢/٨٢٩ قهرا من زوجته وكان طلقها وهو يحبها فاتصلت بغيره ووكلته

-
- (٢٧٢) سهر القلماوى ، الف ليلة ، ص ٣١٩ ؛ الف ليلة وليلة ، ج ٤ ، ص ٢٤٤ .
- (٢٧٣) الشعراني ، لواقع الأنوار ، ص ٤٣ ، ٢٨٧ ؛ زكى مبارك ، التصوف ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .
- (٢٧٤) الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٤٥٤ .

فيه ، فقتل نفسه (٢٧٥) » ، كما يحدثنا عن هيام محمد بن نجم الدين بن الخواجا على بزوجه سمراء ، الذي فاق حبه لها حب قيس لليلي » ، حتى قال عنه المؤرخ « وهو آخر من عرفنا من المتيمين » بل لعله من المناسب أن نورد هنا بعضا من شعره في سمراء هذه بعد أن هجرته لتتزوج برجل من العوام :

سلو سمراء عن كربى وحزنى
وعن جفن حكى هطال مزن

سلوها : هل عرها ما عراني
من الجن والهواتف بعد جن ؟

سلوا : هل هزت الأوتار بعدى
وهل غنت كما كانت تغنى ؟

ويقول في آخرها :

سأشكوها الى مولى حكيم
ليعفو في الهوى عنها وعنى (٢٧٦)

(٢٧٥) ابن حجر ، انباء القمر ، ج ٢ ، ورقة ١٢٠ ب ؛
ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٧ .
(٢٧٦) ابن حجر ، انباء القمر ، ج ٢ ، ورقة ٩١ ب ؛
السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

ورغم هذا فمن الصعب أن نجزم بأن الرجل في العصر المملوكي كان دائم الحب والاحترام لزوجته ، خاصة وأن المصادر تحتوى على بعض الاشارات التى يفهم منها أن الزوج كان يعامل زوجته في بعض الأحيان بوحشية وقسوة الى درجة تصل الى الضرب والإيذاء . فقد أشار أحد فقهاء هذا العصر أن زوجة صديق له شكت له من أخلاق صديقه وأخبرته أنه « كسر لها معصمها (٢٧٧) » . كما وجدت أيضا أمثلة قليلة لرجال من هذا العصر — لا سيما من طائفة التجار — ضعفوا أمام نساءهم ، « فلا يقدر أحدهم على مخالفة زوجته أبدا (٢٧٨) » . وتبدو هذه الصورة واضحة في قصة معروف الاسكافي من قصص ألف ليلة وليلة ، اذ كانت له « زوجة اسمها فاطمة والناس يطلقون عليها لقب (العورة) لأنها كانت فاجرة ماكرة خبيثة قليلة الحياء ، محبة للشر والفتنة ، تعامل زوجها أسوء معاملة ، وفي كل يوم تسبه وتلعنه ألف مرة ، ولا تتورع عن ضربه ، حتى صار يخشى شرها وأذاها وكل ما يربحه من عمله سواء أكان قليلا أم كثيرا يصرفه عليها . لكنها كانت لا تشكر على الكثير وتشور عليه اذا أعطاها القليل فتتغص عيشته وتجعل

(٢٧٧) الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٢١٤ .

(٢٧٨) زكى مبارك ، النصوص ، ج ١ ، ص ٣٥٥ .

ليته أسود من صحبتها » ، وهى كما قال فى حقها الشاعر :

كم ليلة بن لدى زوجتى
فى أنسام الأحوال قضيتها
با ليتنى عند دخولى بها
أحضرت سما ثم أعطبتها (٢٧٩)

ويروى لنا السخاوى فى ترجمة الفقيه محمد بن أبى بكر
شمس الدين كيف أنه تزوج بنفيسة زوجة الأبدى وكيف قاس
منها نكدا عظيما حتى أنه كان يقول فى أغلب الأحيان :
« يا سيدتى نفيسة خلصينى من نفيسة (٢٨٠) » . ويحكى
الشعرانى أن. شيخه على الخواص كان كثيرا ما يقول : أنه منذ
زواجه بابنه عمه منذ خمسة وسبعين عاما وهو لا يتذكر أنه
قضى معها ليلة واحدة فى سلام ووثام ويصفها بشراسة الخلق
وحدة الطبع (٢٨١) . وحسبنا أن تشير فى النهاية الى ذلك
الوصف الطريف الذى سجله لنا ابن دنيال الموصلى عندما
أراد أن يصف حاله مع زوجته التى حاولت شأنها شأن بعض

(٢٧٩) الف ليلة وليلة ، ج ٤ ، ص ٢٢٨ .

(٢٨٠) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٧ ، ص ٢٠٣ .

(٢٨١) الشعرانى ، لطائف المنن ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .

زوجات هذا العصر أن تسلبه نفوذه وسلطانه كرب للأسرة :

بك أشكو من زوجة صيرتنى
غائبا بين سائر الحضار

دار رأسى عن باب دارى
فبالله أخبرونى ياسادتى أين دارى (٢٨٢)

والحديث عن الأسرة المصرية وعن العلاقات الزوجية زمن
سلاطين المماليك يجرنا الى الإشارة الى ظاهرة هامة تبز بعض
القصص المصرى من ألف ليلة وليلة ، ونعنى ظاهرة الخيانة
الزوجية ، اذ كثيرا ما تصور هذه القصص بعض زوجات هذا
العصر وقد أقدمن على خيانة أزواجهن مع عشاقهن من
الشباب (٢٨٣) ، تلك الظاهرة التى ترجع فى رأينا الى زواج الفتاة
فى سن مبكرة برجل مسن ، قد يكون فى عمر أيها ، الأمر
الذى يفضى بها فى النهاية الى طريق الخيانة الزوجية مع شاب
من عمرها لعلها تجد معه شيئا مما افتقدته لدى هذا الزوج

(٢٨٢) ابن دانيال ، طيف الخيال ، ص ١٢٣ .

Mardrus, Le Livre des mille nuits, VI, pp. 403, (٢٨٣)

الطاعن في السن (٢٨٤) . ولنترك الشعراني يروي لنا ما ذكرته له إحدى سيدات هذا العصر في هذا الصدد « أخبرتنى امرأة دينة مصلية قائلة : اني أكره الخروج للسوق فقلت لها : لماذا ؟ فقالت : لأنني أنظر الى الأشكال الحسنه فتميل اليها نفسي ، فأرجع لا أقدر أنظر في وجه زوجي . قالت : دخلت مرة سوق الوراقين فرأيت شابا فأخذ بمجامع قلبي فرجعت فوالله ما رأيت زوجي في عيني الا كالقطرب (ذبابة زرقاء) أو كالعول أو كالغريت أو كالبقرة . وكما أن الرجل اذا رأى المرأة الحسناء مالت اليها نفسه ، فكذلك المرأة اذا رأت الشاب الأمرد الجميل تروح نفسها اليه ضرورة . قالت ورأيت مرة انسا نا من الطاق وزوجي عندي ، وصرت أنظر الى حسن شكل ذلك الانسان وحسن لحيته ووجهه وعيونه ، وأنظر الى زوجي والى تشعيث شعر لحيته وكبر أسنانه وأنفه وعمش عينيه وخشونة جلده وملبسه وفضاظته وتغير رائحة فمه وابطه وقبح كلامه ، فما كنت الا فتننت بذلك الانسان . قالت : ثم افى تبت الى الله تعالى عن الخروج مطلقا لا لحمام ولا لزيارة ولا لغيرها فصار زوجي في عيني كالعروس (٢٨٥) » . لذلك لا غرابة ان طالب فقهاء هذا

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 194 (٢٨٤)

(٢٨٥) الشعراني ، لواقح الانوار ، ج ٢ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

العصر الأزواج بمنع المرأة من الخروج الا لضروره فصول .
لتكون على حد تعبير أحدهم « راضية بك ، لا التفات لها
الى غيرك » .

واذا كان بعض القصص المصرى من ألف ليلة وليلة يظهر
الزوجة دائما بمظهر الخائنة التى تبيع عرض زوجها مع عشيق
لها ، فان هناك أيضا من هذا القصص ما يشير الى مدى اخلاص
الزوجة لزوجها والى مدى تفانيها فى حبه وفى خدمته . وحسبنا
أن نشير فى هذا المجال الى ما جاء فى قصة علاء الدين أبو
الشامات من أن زوجة شمس الدين التاجر ، كانت تعرف ميعاد
مجيء زوجها ، فتغتسل وتصلح من شأنها استعدادا
لاستقباله (٢٨٦) .

والواقع أن الرجل قد اعتاد فى هذا العصر أن يقضى معظم
نهاره فى عمله خارج المنزل حتى اذا انتهى من عمله عند غروب
الشمس عاد الى منزله « حيث يتصافى مع زوجته ويتم نهاره
فى بيته (٢٨٧) » . أما الزوجة فتقوم بشئون بيتها ، ثم ترتدى
الثياب الرقيقة المذهبة المصنوعة من الحرير الفاخر ، لتظهر

Mardrus, Le Livre des mille nuits III, p. 142. (٢٨٦).

(٢٨٧) سيرة الظاهر بيبرس ، ص ٦٢ .

أمام زوجها في صورة كلها فتنة واغراء (٢٨٨) .

وجرت العادة في هذا العصر « أن الزوجة اذا جاءت الى الفراش لتنام مع زوجها تأخذ شيئاً يعطيه لها في الغالب غير نفقتها بحسب حاله وحالها لحق الفراش على ما يزعمن ... » وذكر الفقيه المغربي ابن الحاج أن هذا التصرف منكر وشبهه بالزنا (٢٨٩) . وتفسير هذه العادة يرجع في رأينا الى أسباب اقتصادية ، لا سيما وأن بعض الأزواج قد عرفوا بالبخل والتقتير بدليل ما درج عليه أغلب فقهاء هذا العصر من نصح الرجال بعدم التقصير في الاتفاق على الزوجات والأبناء ولنذكر هنا احدى العبارات الشهيرة التي سجلها لنا الشعرائي في هذا الصدد اذ يقول : « وأخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن تنفق على زوجاتنا وبناتنا وتؤدبهن ونصبر عليهن في النفقة . وقد قالوا أقبح من كل قبيح صوفي شحيح ، فاعمل يا أخى على تحصيل النفقة عليك وعلى عيالك كل يوم بيوم ، ولا تدخر شيئاً الا لعذر شرعى والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه (٢٩٠) » . لذلك فليس من

Schefer, Voyage magnifique, p 211.

(٢٨٨)

(٢٨٩) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ص ١٦٩ .

(٢٩٠) الشعرائي ، لواقح الأنوار ، ج ٢ ، ص ٣٥ - ٣٦ .

المستبعد أن تكون زوجات هذا العصر قد لجأن الى هذه الحيلة ، حتى يستطعن الحصول على بعض من المال يساعدهن في قضاء بعض حوائجهن وشراء ما يلزمهن من الملابس وأدوات الزينة التي عرفت على عصر سلاطين المماليك بأسعارها المرتفعة وخاصة عندما يكون الزوج بخيلا شحيحا (٢٩١) .

وقبل أن تتعرض لدور الأم المصرية في تربية أولادها والأسلوب الذي اتبعته في تعليمهم ، ينبغي أن نشير هنا الى الاختلافات الخاصة « بالنفاس والولادة » لما لها من أهمية كبيرة في العصر المملوكي ، اذ جرت العادة أن يتفق قبل الوضع مع الداية على أجر معلوم ، حتى لا يحدث - كما يقول ابن الحاج - نزاع « وكلام كثير » حول تحديد أجرها بعد الوضع (٢٩٢) ، كما يشير هذا الفقيه المغربي الى دايات هذا العصر حين يقول : « ومنهن من اذا تعسرت الولادة على المرأة أخذن لباب الخبز ويجعلن في قلبه زبل الفأرة ويطعننها ذلك من حيث لا تشعر ويعلنن ذلك بزعمهن أنه يهون عليها الولادة... » (٢٩٣) فاذا وضعت الأم مولدها أقبلت النساء

(٢٩١) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pp. 195-196

(٢٩٢) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٣ ، ص ٨٣ .

(٢٩٣) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٣ ، ص ٢٨٤ .

يزغردن ويرفعن أصواتهن بذلك مع ضرب الدفوف والرقص
واللهو واللعب ، في حين تدوى المزامير والأبواق على الأبواب
« لتعمل ما في وسعها من الهرج والشهرة » (٢٩٤) * وعند قطع
سرة المولود يجتمع حوله جمع كبير من صغار الأطفال بزعم
أن من لا يحضر من الصغار عند قطعها ودخل بعد ذلك تحول
عيناه أو ييكي كثيرا في طفولته * أما السكين التي تقطع بها
سرة المولود فتبقى عند رأسه مادامت أمه جالسة عنده ، فإذا
قامت حملتها معها * بل تظل تفعل ذلك أربعين يوما حتى
لا يصيبها شيء من الجان (٢٩٥) * ويتضاعف الفرح إذا كان
المولود ذكرا ، إذ كان الرجل كثيرا ما يركز كل آماله عندما
تحمل زوجته أن يكون المولود ذكرا « يحبى به ذكره وينشرح
له صدره » (٢٩٦) « فإذا تم له ما تمناه تعين عليه أن يقيم » وليمة
مولود ذكر (٢٩٧) « يدعو إليها الأهل والأصدقاء ويفرط في عمل
ألوان الطعام الفاخر ، هذا عدا مظاهر التكريم التي تضاعف

-
- (٢٩٤) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٨ .
(٢٩٥) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٣ ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ .
(٢٩٦) بئرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ورقة
٣٠٤ .
(٢٩٧) ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ١ ، ورقة ٥٦٠ .

لأم المولود في هذه الحالة^(٢٩٨) . ويفهم من قصص ألف ليلة وليلة أن الأفراح كانت تستمر عادة سبعة أيام لا ينقطع طوالها وفود المهنيين والمهنئات ، وكل من جاءت للتهنئة جددوا لها اللهو واللعب والرقص^(٢٩٩) .

وعندما تحل الليلة السابقة ، التي عرفت «بليلة السبوع» ، كانوا يضعون عند رأس المولود على حدة تعبير ابن الحاج ، الختمة واللوح والدواة والقلم ورغيف من الخبز وقطعة من السكر . أما اذا كان أهل المولود من ذوى اليسر والسعة ، فكانوا يعملون رغيفا كبيرا أو «أبلوجة من السكر» ويضعونها مع طبق من الفاكهة ، وقفه من النقل والسمع عند رأس المولود . وفي صبيحة السبوع يقومون بتفريق كل ذلك ، زاعمين أنه بركة لمن يأخذه وأنه ينفعه من الصداغ ، كما يزعمون أن الملائكة تكتب بالدواة والقلم ما يجرى على المولود في عمره الى حين وفاته^(٣٠٠) .

(٢٩٨) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٣٢ ؛ ابن مغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٣١٩ ، السخاوى ، التشر المسبوك ، ص ٧ .

(٢٩٩) Mardrus, Le Livre des mille nuits, III, p. 147.

(٣٠٠) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٣ ، ص ٢٩٠ .

واعتماد الناس أن يحتفلوا بيوم السبوع احتفالا كبيرا ،
فتلبس أم المولود الثياب الجديدة الجميلة ، وتطوف بأنحاء
المنزل في موكب مهيب ، تحيط بها الشموع من كل جانب ،
والداية أمامها تحمل المولود ، وأمام الداية امرأة أخرى معها
صحن به شئ من الملح المخلوط بالكمون تنشره في المنزل يمينا
ويسارا . هذا عدا احراق نوع من البخور « مخصوص
بالولادة » يقال أنه كان يحمى من الأمراض « والعين والجان » .
ولابد أيضا في ذلك اليوم من عمل ألوان معينة من الطعام
كالزلاية والعصيدة ، وتفريقها على أهل والجيران
والمعارف (٣٠١) كذلك جاء في بعض القصص المصرى من ألف
ليلة وليلة أن والد المولود لم يكن يستطيع أن يرى زوجته قبل
اليوم السابع ، اذ كان عليه أن ينتظر حتى حلول يوم السبوع
ليدخل اليها ويهنئها بسلامة الوضع ويشترك معها في اختيار
اسم المولود ، وكثيرا ما ترك للأم حرية اختيار الاسم اذا كان
أنثى ، أما اذا كان المولود ذكرا فعاليا ما كان الأب يختار الاسم
دون مشورة أحد (٣٠٢) .

(٣٠١) ابن الجاح ، المدخل ، ج ٣ ، ص ٢٩١ .

(٣٠٢) Mardrus, Le Livre des mille nuits, III, pp 147-
148.

ويفهم أيضا من كتابات بعض المعاصرين أن العبادة أوجبت على والد المولود أن يجدد كسوة أهل المنزل جميعا وكذلك كل ما يحتاجه ، « حتى الحصير لا بد من تجديدها الى غير ذلك مما اعتادوه (٣٠٣) » .

وتمسك الناس بعصر المماليك بهذه العوائد التي لازلنا نرى بعض صورها في مجتمعنا المصرى الحديث « حتى تداين بعضهم لها (٣٠٤) » . ومن الملاحظ أيضا أن أهل العلم والمشايخ لم يستطيعوا أن يخالفوا بقية طبقات الشعب فى ذلك . ويكفى أن تشير هنا الى أن السخاوى أحد فقهاء هذا العصر يذكر عن نفسه عندما رزق مولودا سنة ١٤٥١/٨٥٥ أنه أقام وليمة كبيرة دعا اليها الفقراء والصلحاء وطلبة العلم وغيرهم ممن « توسم فيهم الخير (٣٠٥) » .

أما عن دور الأم المصرية فى تربية أبنائها ، فلا نجد شيئا عنه فى المصادر التاريخية نتيجة لانصراف أغلب مؤرخى هذه الفترة الى اخبار الطبقة الحاكمة ونعنى بها طبقة المماليك ،

(٣٠٣) ابن الحاج ، المدخل ج ٣ ، ص ٢٩٣ .

(٣٠٤) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٣ ، ص ٢٩٣ ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١٢٤ .

(٣٠٥) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٢٤٩ .

فالتاريخ كان في تلك العصور كما هو معروف لنا ريب
السلطين والامراء والقصور والمدن ، أما فيما عدا ذلك من
أفراد الشعب وعامته فكان نصيبه الأهمال وحسبنا ما يعترف
به مؤرخ معروف - مثل ابن تغرى بردى - عندما يقول عن
أحد الأفراد « وقد أضربنا عن شرح ما حدث له لأنه لم يكن
من أعيان الناس لتشكر أفعاله أو تذم (٣٠٦) » .

ومع ذلك فكثيرا ما نجد صورة الأم المصرية التى اعتادت
أن تحب ابنها وتسرف فى هذا الحب ممثلة أحسن تمثيل فى
بعض القصص المصرى من ألف ليلة وليلة . بل كثيرا ما تراها
تحاول أن تحميه من عقاب أبيه وتغفر له كل هفوة مهما عظمت
وقد تذهب الى الكذب فى بعض الأحيان لتخلصه من هذا
العقاب (٣٠٧) .

ولندع للقلم العنان ليعطينا صورة كاملة عن أم نور
الدين وما قامت به لحماية ابنها من عقاب أبيه العادل « ... ولم
يزل سائرا حتى وصل الى بيت والده فقامت له أمه وقالت له :
يا ولد ما سبب غيابك الى هذا الوقت ، والله أنك قد شويشت

(٣٠٦) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٢٤٤ .

(٣٠٧) سهر القلماوى ، ألف ليلة ، ص ٣١٩ .

على وعلى والدك لغيابك عنا ، وقد اشتغل خاطرنا عليك ، ثم
أن أمه تقدمت اليه لتقبله في فمه فشمت منه رائحة الخمر ،
فقالت : يا ولدى كيف بعد الصلاة والعبادة صرت تشرب الخمر
وتعصى من له الخلق والأمر فبينما هما في الكلام ، اذا بوالده
قد أقبل ثم أن نور الدين ارتمى في الفراش ونام فقال أبوه :
نام نور الدين هكذا فقالت له أمه : كان رأسه أوجعته من هواء
البستان فعند ذلك تقدم والده ليسأله عن وجعه ويسلم عليه
فشم رائحة الخمر وكان لا يجب من يشرب الخمر فقال له :
ويلك يا ولدى هل بلغ بك السفه الى هذا الحد حتى تشرب
الخمر ... ووقع الأرض مغشيا عليه واستمر في غشيته ساعة
فرشوا عليه ماء الورد ، فلما أفاق من غشيته أراد أن يضربه ،
فحلف بالطلاق من أمه أنه اذا أصبح الصباح لابد من قطع
يده اليمنى فلما سمعت أمه كلام والده ضاق صدرها وخافت
على ولدها ولم تزل ندادي والده وتأخذ بخاطره الى أن غلب عليه
النوم ، فصبرت الى أن طلع القمر وأتت الى ولدها وقد زال
عنه السكر فقالت له يا نور الدين : ما هذا الفعل القبيح الذى
فعلته ... لقد حلف بالطلاق أنه اذا أصبح الصباح لابد أن
يقطع يدك اليمنى فندم نور الدين على ما وقع منه ... فقالت
له أمه : يا ولد ان هذا الندم لا ينفعك دائما ينبغى لك أن تقوم

فى هذا الوقت وتهرب وتطلب النجاة لنفسك وتختفى عند
خروجك حتى تصل الى أحد من أصحابك وانتظر ما يفعل الله
فانه يغير حالا بعد حال ثم أن أمه فنحت صندوق المال وأخرجت
منه كيسا فيه مائة دينار وقالت له : يا ولدى خذ هذه الدنانير
واستعن بها على مصالح حالك فاذا فرغت منك يا ولدى فأرسل
أعلمنى حتى أرسل اليك غيرها ، واذا راسلتنى فأرسل الى
أخبارك سرا ولعل الله أن يقدر لك فرجا وتعود الى منزلك ،
ثم أنها ودعته وبكت بكاء شديدا ما عليه مزيد . . . (٣٠٨) » .

وتمدنا هذه القصص أيضا بتفاصيل دقيقة عن الأم التى
تحاول أن ترجع الابن عن غيه بعد موت أبيه فاصحة له من
التمادى فى اللهو واقتلاف المال بعد رحيل الأب ، وقد أحست
أنها الوصية على أمره ، بل أنها كثيرا ما كانت تعطيه من مالها
الخاص بعد اقتلاف ليصلح من حاله ، فهذه أم أبى الحسن
الخرسانى تعطيه من المال مرات وتحاول أن تكون هى الوصية
على أمره حتى ينصلح حاله ، ولندع أبى الحسن يروى لنا
وكيف مدت له هذه الأم يدها حتى خرج من محضته بعد أن
أضاع كل شيء « فاشتغلت باللذات وأكلت وشربت ، ثم اتخذت
الأصحاب والأصدقاء وكانت أمى تنهى عن ذلك وتلومنى عليه

(٣٠٨) ألف ليلة وليلة ، ج ١ ، ص ٦٥ .

فلم أسمع منها كلاما حتى ذهب المال جميعه وبعث العقار ولم
يبق لى شىء غير الدار التى أنا فيها وكانت دار حسنة ...
فقلت لأمى : أريد بيع الدار فقالت : يا ولدى ان بيعتها تفتضح
ولا تعرف لك مكانا تأوى اليه فقلت هى تساوى خمسة آلاف
دينار ، فاشترى من جملة ثمنها دار بألف دينار تم أتجر بالباقى .
فعالت : أتبعينى هذه الدار بهذا المقدار قلت : نعم ، فجاءت
الى طابق وفتحته وأخرجت منه انا من الصينى فيه خمسة
آلاف دينار فتخيل الى أن هذه الدار كلها ذهب فعالت لى :
يا ولدى لا تظن أن هذا المال مال أيبك ، والله يا ولدى انه من
مال أبى وكنت قد ادخرته لوقت الحاجة اليه ، فانى كنت فى
زمن أيبك غنية عن الاحتياج الى هذا المال . فأخذت المال
منها ... وعدت لما كنت عليه من المأكل والمشرب والصحبة ،
حتى نفذت الخمسة آلاف دينار ولم أقبل من أمى كلاما ولا
نصيحة ، ثم قلت لها مرادى أن أبيع الدار فقالت يا ولدى قد
نهيتك عن بيعها لعلمى أنك محتاج اليها فكيف تريد بيعها ثانيا ،
فقلت : لها لا تطيلى على الكلام فلا بد من بيعها ، فقالت : بعنى
اياها بخمسة عشر ألف دينار بشرط أن أتولى أمورك بنفسى ،
فبعيتها لها بذلك المبلغ على أن تتولى أمورى بنفسها ، فطلبت
وكلاء أبى وأعطت كل واحد منهم ألف دينار وجعلت المال تحت
يدها والأخذ والعطاء معها وأعطتنى بعضا من المال لاتجر فيه ،

وقالت لى : أقعد أنت فى دكان أليك فعملت ما قالت أمى ...
وجئت الى الحجرة التى فى سوق الصيارف وجاء أصحابى
وصاروا يشترون منى وأبيع لهم ما طاب لى الربح وكثر مالى ،
فلما رأتنى أمى على تلك الحالة الحسنة أظهرت لى ما كان
مدخرا عندها من جوهر ومعدن ولؤلؤ وذهب ثم عادت لى
أملاكى التى كان وقع فيها التفريط وكثر مالى كما كان ... (٣٠٩)»

وتعكس لنا هذه القصص أيضا بعض دقائق خاصة
بالحياة العائلية على عصر سلاطين المماليك ، وهى عناية الآباء
والأمهات بتربية أبنائهم وتعليمهم كما يتضح من قصة قمر
الزمان ، اذ صارت الأم تقرأ بنتها والرجل يقرأ ولده حتى
حفظا القرآن ، وتعلما الخط والحساب والفنون والآداب من
أبيهما وأمهما ، ولم يحتاجا الى معلم (٣١٠) . وجاء أيضا فى
بعض المصادر الأخرى أن المولود اذا ولد فى بيت يسر وثرى ،
كانت تتسلمه المراضع والدادات حتى يشب وعندئذ يقوم
بتأديبه وتعليمه أحد مؤدبى الأطفال (٣١١) . ويبدو أن هذا

(٣٠٩) ألف ليلة وليلة ، ج ٤ ص ٢٣١ .

(٣١٠) ألف ليلة وليلة ، ج ٤ ، ص ٢٣٨ .

(٣١١) ابن نفري بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ٨٠ ؛
السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ١٥٨ .

المؤدب قد نمتع باحترام ومهابة تفوق في بعض الأحيان مهابة
الوالدين في نفس الطفل لدرجة أن اعتادت بعض الأمهات ، كما
يروى أحد المعاصرين ، أن يلجأن الى مؤدب الطفل لشكوى
أبنائهن اذا أخلوا بالأدب في المنزل (٣١٢) . لذلك اهتم المحتسب
في ذلك الوقت بمعسى الصبيان وبسلمات البنات وكان يعرف
عليهم عريفا ثقة له دين ، يسمعهم من التعلم في المساجد ، لأن
الرسول الكريم أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين ،
لأنهم يسودون حيطانها ، وينجسون أرضها *** ، بل يتخذون
للتعليم حوانيت في أطراف الأسواق ، أو على الشوارع ، ولا
يعلمون في بيوتهم ، ولا في الدهاليز . وألزم المحتسب أيضا
نلك الفئة أن تبدأ بتعليم الصغار السور القصار من القرآن .
بعد حذقة بمعرفة الحروف ، وضبطها بالسكرال *** ثم يعرفوهم
عقائد السنين ، ثم أصول الحساب ، وما يستحسن في المراسلات
والأشعار . دون سخيها ومستردلها . وفي الرواح يأمرهم
بنجوبد الخط ، ويكلفوهم بعرض ما أملوه عليهم حفظا عابيا .
ومن كان عمره سبع سنين أمره بالصلاة في الجماعة ***
وبأمرهم ببر الوالدين والانقياد لأمرها بالسمع والطاعة ،
والسلام عليهما ، ونقبيل أيديهما عند الدخول عليهما ،
ويضربوهم على اساءة الأدب ، والفحش من الكلام ، وغير

(٣١٢) الترسنى ، هز الفخوف ، ص ٣١ .

ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون السريعة ، مثل اللعب
بالكعب ، والبيص والنرد وجميع أنواع القمار . كما منع
المحتسب تلك الفئة من المعلمين والمعلمات من ضرب الصغار
بعضى عليظه نكسر العظم . ولا رقيقة تؤلم الجسم بل تكون
وسطا . وأوصاهم باتخاذ مجلد عريض السبر وأن يعمدوا
بضربه على اللوايا والأفخاذ . وأسافل الرجلين . . . كذلك حرم
المحتسب على المعلمين والمعلمات استخدام أحد من الصبيان
في حوائجه وأشغاله التي فيها عار على آبائهم ، ولا يرسلوا
صبييا مع امرأة لكتب كتاب ، ولا مع رجل لكتب قصة ، ولا
رسالة فان جماعة من الفساق يحاولون على الصبيان بذلك .
ومن الطريف أن نلاحظ أن محتسب العصر المملوكي قد أوصى
المعلمين باطعام الصغار وفت جوعهم وحثهم على منع الصبيان
من حفظ أشعار ابن الحجاج ، صاحب الديوان الضخم المليء
بشعر الخلاعة والمجون والفسق ، والنظر فيه وضربهم على ذلك ،
وكذلك ديوان صريع الدلاء فانه لا خير فيه ، وذلك لميله الى
المذهب الشيعي الذي هو على النقيض تماما من المذهب
السني ، مذهب سلاطين المماليك . ولم ينسى المحتسب أيضا
أن يوصى معلمات البنات بمنع بالغات البنات من الفواحش ومن
القصائد والأشعار والكلام الذي لا خير فيه ، ومنعهن أيضا

من زينتهن وبهرجتهن يوم عيدهن في البطالة (٣١٣) . لذلك لا غرابة ان احتوت المصادر المملوكية على الكثير من الاشارات التي تدل على مدى الاحترام التي تمتعت به الأم المصرية من قبل أبنائها ، نتيجة لهذه التربية الجادة ، ولا غرابة أيضا أن جاء في بعض قصص ألف ليلة وليلة أن الأبناء كانوا ييخنون عن أمهاتهم بمجرد عودتهم الى المنزل لكي يقبلوا أيديهن كما اعتادوا أن يفعلوا كل يوم (٣١٤) ، خاصة وفد أوصى القرآن بالوالدين « ووصينا الانسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لى ولوالديك الى المصير (٣١٥) » ، كما جاء في الحديث الشريف « أن الجنة تحت أقدام الامهات (٣١٦) » .

هذه عن دور الزوجة المصرية في المدنية ، أما عن الفلاحة في الريف المصرى على عصر سلاطين المماليك ، فيبدو رغم قلة الاشارات اليها ، أنها كانت كما هى اليوم تنهض بنصيب في

(٣١٣). ابن بسام ، نهاية الرتبة في طلب الحسنة ، ص . ١٦١ - ١٦٣ .

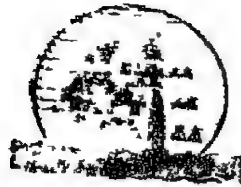
(٣١٤). Mardrus, Le Livre des mille nuits, I, p 403.

(٣١٥) سورة لقمان آية ١٣ .

(٣١٦). Mansour Fahmy, La Condition de la femme, p 47

الحياة لا يقل جهدا ومشقة عن نصيب زوجها ، اذ كان يقع عليها عبء جلب مياه الشرب من النهر أو الترعة ، وغسل الملابس فيها ، وعمل « جواليس الجلة ليليسوا بها يسوتهم . وأفرانهم .» هذا بالإضافة الى ارضاع أطفالها واعداد الطعام لزوجها ، ووقيد الفرن لخبز الخبز « وتدميس الفول وطبخ البيسار وتقمير البتاو (٣١٧) » .

(٣١٧) الشربيني ، هر القحوف ، ص ٥٤ .



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

الفصل السادس

الزينة

الزينة .

وصف أحد المعاصرين نساء مصر بأنهن أرق . نساء الدنيا طبعاً وأحلاهن صورة (٣١٨) ، لذلك فمن الطبيعي ونحن بصدد الحديث عن المرأة في مصر المملوكية أن نشير أيضاً الى أدوات الزينة الخاصة بها ، وكذا الملابس التي أفاضت المصادر المعاصرة في الإشارة اليها والحديث عنها ، لا سيما وقد تفتنت المرأة في ذلك العصر ، في مختلف الوسائل التي تظهر جمالها وتبرز فتنتها ، وحرصت على أن تأخذ شعر وجهها وجسدها بالتحفيف ، وشعر حواجبها بالمساواة والزينة (٣١٩) . وقد استرعى نظر الرحالة تافور بالقاهرة ذلك العدد الضخم من العبيد السود الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة ، ويسرون في الشوارع صائحين ، فلما استفسر عن حقيقة أمرهم ، قيل له أنهم يقومون بتحفيف النساء اللاتي

(٣١٨) ابن ظهيرة ، الفصائل الباهرة ورقة ٨٠ ب ؛
الصدقي ، الكواكب السائرة ، ورقة ١٦٨ أ .
(٣١٩) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ص ١٦٧ ؛ ح ٤ ،
ص ١٠٧ .

لا يرغب في اتمام هذه العملية في الحمامات العامة (٣٢٠) .
والواقع أن الأخيرة كانت تعد في العصور الوسطى عامة ، وفي
العصر المملوكي خاصة بمثابة معاهد التجميل الحالية التي تهرع
اليها الكثيرات من النساء للعناية بأنفسهن ولا يزال جمالهن
وفتنتهن . وقد امتازت مصر على سائر الأقاليم الاسلامية
بإبداع حماماتها وكانت ذات شهرة عظيمة في ذلك . ويحدثنا
ابن دقماق عنها فيقول : « ان عمرو بن العاصر أمر بإنشاء
أول حمام شيده المسلمون بسويقة المغاربة بالفسطاط » وكان
هذا الحمام يعرف بحمام الفأر بسبب مقاييسه الصغيرة (٣٢١) .
اذ كانت حمامات الروم تشتهر بسعتها وبأقسامها الثلاثة التي
سوف نشير اليها بعد قليل ، كذلك يروى لنا المقرئ أن
الخليفة الفاطمي العزيز بالله كان أول من شيد حماما في مدينة
القاهرة (٣٢٢) .

وفي عام ١٩٣٢ أمكن لمتحف الفن الاسلامي أن يعثر في
الحفائر الأثرية التي قام بها في منطقة أبي السعود بمصر
القديمة على بقايا حمام من العصر الفاطمي على جانب كبير من

Tafur, Travels, p 101.

(٣٢٠)

(٣٢١) أحمد ممدوح حمدي ، معدات الحمام ،

ص ٣٤ .

Pauty, Les Hammams du Caire, p 1.

(٣٢٢)

الأهمية نظرا لما كان يحتويه من الصور والرسوم التي وجدت
منقوشة على جدرانه بالفريسكو باللونين الأحمر والأسود (٣٢٣) .

ومن الحمامات العامة المملوكية التي لا تزال تحتفظ ببعض
بقاياها حتى الآن حمام الأمير بشتاك بشارع سوق السلاح
بالقاهرة وهو يرجع الى سنة ١٣٣٩/٧٤٠ ، وهذا الحمام لم
يبق منه في الواقع سوى مدخله المكسو بالرخام الملون ، كما
بقى لنا من حمام السلطان المؤيد شيخ ، الذي شيده سنة
١٤٢٣/٨٢٣ ، قبة مخربة . كذلك أشار المؤرخ ابن اياس أن
السلطان سليم العثماني عندما دخل حمام الاستادار بيولاقي
عام ١٥١٧/٩٢٣ ، أنعم على الحمامي بعشرين دينار « وأعجبته
الحمام وشكرها (٣٢٤) » .

ولكن كيف كانت حمامات مصر على عصر سلاطين
المماليك ، التي اتخذت منها النساء معاهد للتجميل ، وكن
يقضين فيها الساعات الطوال تحت أيدي متخصصات في فنون
التجميل والزينة ؟

(٣٢٣) أحمد ممدوح حمدي ، معادن التجميل ،
ص ٤٢ أحمد عبدالرازق ، تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٣ ، من ٢٦٧ — ٢٧٠ .
(٣٢٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ح ٣ ، ص ١١٦ .

لم تنعرض المؤلفات التاريخية لوصف الحمامات العامة ونصميمها في ذلك العصر ، كذلك لم يحتفظ لنا الزمن الا بالقليل من بقايا حمامات العصر المملوكى التى لا تفيد فى التعرف على طبيعة هذه الحمامات والمخصص منها للنساء بوجه خاص ومع ذلك فمن الممكن أن نتعرف على طريفة تخطيط حمامات هذا العصر من خلال دراستنا للونائق والحجج المملوكية المعاصرة . اذ جاء فى احدها فتىل رائع فى وصف حمام ينلخص فى أنه بناء توسط واجهته بوابه صيقة دات معالم معماريه ورخرقة ندى على صفة المبى . وأحيانا توجد بوابان اذا كان الحمام مخصصا للسيدات والرجال فى آن واحد . أما المدخل فغالبا ما يكون منحبا وفى ركن منه تقبع المشرفة على الحمام لسنقبل الزبائن وتلقى منهن ودائعهن من نفود وحلى وغير ذلك مما يخفى عليه من الصياع أتناء الاستحمام وهذا المدخل يؤدى الى بهو فسيح عبارة عن صالة معدة للحصول على قسط من الراحة قبل وبعد الاستحمام . وبوسط هذا البهو توجد ردهة فسيحة مبلطة بالنسيفساء ويتوسطها فسقة رائعة . وفى جوانبها ايوانات بها مصاطب يرتفع قليلا عن الأرضى ومغطاة بحصير أو سجاجيد صغيرة . وأحيانا تحجب بعض هذه المصاطب بواسطة حواجز من الخشب لتمنع عيون الفضوليين من رؤية من بداخلها ، كما توجد حنيات

أو دخلات صغيرة لحفظ الأحذية • ويعلو هذه الردهة
(شخشيخة) لاضاءة هذا المكان اضاءة خفيفة اذا أن معظم
المستحمات كن يتواجدن فيها وهن فى أزر من البشياكير أو
الفوط •

ويلي هذه الردهة أجزاء الحمام الرئيسية وهى بيت أول
وهو عبارة عن قاعة صغيرة مربعة تقريبا ، أعدت لتنزع فيها
النساء ملابسهن • ونمتاز غرفة بيت أول هذه بالدفع وسميت
كذلك لأنها أولى الغرف المداقنة • عندما تخلع المستحمة نياها
كانت تضع على حدها ازارا يصل الى الركبتين وبعدها تنتقل
الى الغرفة الرئيسية من غرف الحمام المسماة بيت حرارة • وهو
عبارة عن قاعة تعلوها مبه ومبلطة بالنسيفساء ، وتحتوى على
أربعة أو اوين بكل واحد منها حوض حجرا ، وبه أيضا خلوتان
وطهر وبيت نوره • وفى بيت الحرارة هذا تقوم البلافة بأداء
عمالها من تدليك جسد المستحمة بقشور الرمان لتصير خشنة
ويخرج الرسخ وغسله بالماء الساخن الذى يوجد بالمغطس وبعد
ذلك نقوم بنجفيف جسدها بالمناشف والفوط ، ثم تبدأ فى إزالة
الشعر من بعض المواضع اذا لزم الأمر مستخدمة فى ذلك النورة
وهى عبارة عن خليط من الجير والزرنيح • وتتلخص طريقة
اعدادها فى « القاء على كل عشرة أوزان من الجير الأبيض ووزن

واحد من الزرنيخ الخالص (٣٢٥) » وكثيرا ما شدد المحتسب على البلانة مراعاة دقة هذه الأوزان حتى لا تفسد النورة ، وتحدثنا قصص ألف ليلة وليلة أن البلانة كانت تستخدم عجينة من السكر والليمون لازالة الشعر بدلا من النورة (٣٢٦) . وعقب انتهاء البلانة من عملها كانت المستحمة تنتقل مرة ثانية الى غرفة بيت أول حيث تقضى هناك بعض الوقت تحت أيدي الماشطة التي كانت تنحصر مهمتها في تزيين الوجه والرأس بكافة الطرق والوسائل حتى تبدو المرأة عند مغادرتها للحمام في أجمل زينة وأكمل هيئة بما استصحبتة معها من الثياب الفاخرة والحلى والجواهر حتى يراها غيرها فتقع كما سبق أن ذكرنا « المفاخرة والمباهاة (٣٢٧) » .

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن الحمامات العامة أن نشير الى اهتمام الحكومة المملوكية بأمر هذه الحمامات وتنظيم الدخول فيها ونوفير سبل الأمن لتحقيق القيام بأغراضها خاصة وقد اتضح لنا أن أهمية الحمام في العصر المملوكي لم تقتصر على أنها مكان لنظافة البدن فحسب ، بل كانت مراكز التجميل

(٣٢٥) ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٣٢٦) Mardrus, Le Livre des mille nuits, I, p 402

(٣٢٧) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ١٧٣ .

للرجال والنساء على السواء ، ومن ثم فقد أسندت مهمة
الإشراف عليها إلى المحتسب الذي كان يأمر « ضامن الحمام
بنظافتها وكنسها وغسلها بالماء الطاهر غير ماء الغسالة ، يفعلون
ذلك كل يوم مرتين ويدلكون البلاط بالأشياء الخشنة لئلا
يتعلق به الأوساخ والصابون ، فتنزلق عليها أرجل الناس »
كما كان يأمره « بغسل الخزائن من الأوساخ المجتمعة في مجاريها
والعكر الراكد في أسفلها كل شهر مرة لأنها إن تركت أكثر
من ذلك تغير الماء فيها في الطعم والرائحة ... وتبخير الحمام
بالفحم واللبان في كل يوم مرتين لا سيما إذا شرع في كنسها
وغسلها ... ويأمر ضامن الحمام أيضا بأن يجعل عنده ميازر
يكرها أو يعيرها لمن يحتاج ، فإن الغرباء والفقراء قد يحتاجون
إلى ذلك ، فإن كشف العورة حرام ، وقد لعن رسول الله صلى
الله عليه وسلم الناظر والمنظورة (٣٢٨) . لذلك لا عجب أن
هاجم الفقيه المغربي ابن الحاج معاصريه من العلماء لتركهم
نساءهم يدخلن الحمامات باديات العورات « وهن يجتمعن في
الحمامات مسلمات ونصرايات ويهوديات فيكشف بعضهن
على عورات بعض (٣٢٩) » .

(٣٢٨) ابن بسام ، بهاية الرتبة ، ص ٩ ٦ - ٧ .

(٣٢٩) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .

وتؤدى بنا العبارة الأخيرة لهذا الكاتب الناقد الى التساؤل عن موقف الاسلام من دخول المرأة الحمام ؟ يروى الفقيه تقى الدين بن تيمية أحد كبار مفكرى عصر سلاطين المماليك أن الرسول قد حرم على النساء الدخول الى الحمامات الا لضرورة قصوى حين قال : « ... ومن كانت تؤمن بالله واليوم الآخر من اثاث أمتى فلا تدخل الحمام الا مريضة أو نساء (٣٣٠) » ، الأمر الذى ترتب عليه نفور أغلب فقهاء هذا العصر من الحمام .

فالسقوطى يبيحه للرجال بشروط ، ويقول أنه مكروه للنساء الا فى حالات خاصة (٣٣١) . وابن الحاج ينصح معاصريه بعدم السماح لنسائهم بدخول الحمام « لما اشتمل عليه فى هذا الزمان من المفاسد والعوائد الرديئة (٣٣٢) » . ومع ذلك فتصور لنا قصص ألف ليلة وليلة كيف احتل الحمام بكل ما فيه من حياة ، مكان المسجد فى الأخبار العربية القديمة ، وكما كان الرجال يجتمعون لأمر بجمعهم فى المسجد ، فقد اجتمعت نساء

(٣٣٠) ابن تيمية ، مجموع فتاوى ، ج ١ ، ص ٦١ .

(٣٣١) السقوطى ، منتقى ينبوع ، ورقة ٤ ؛

Pesle, La Femme musulmane, p. 239

(٣٣٢) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ١٧٢ — ١٧٣ .

القاهرة وغيرها من المدن في الحمام للعناية بزيتتهن وليلهن
وليتحادثن وليرين الغرب وليتصلن به^(٣٣٣) . كذلك تصور لنا
هذه القصص المراحل المختلفة التي كانت تمر بها المرأة في
الحمام حتى تخرج في النهاية في أبهى زينة وأجمل صورة ،
فتشير كيف كانت تعطر الرأس بعد الاستحمام بالمسك وكيف
كانت تزين الحواجب والعيون بالكحل وما الى ذلك من تبخير
الكعوب بالبخور المخلوط بالعنبر والمسك من نخضيب الأيدي
بالحناء^(٣٣٤) ، تلك الظاهرة التي جذبت أنظار الرحالة الأجانب
الذين زاروا مصر على عصر المماليك مثل الرحالة اليهودي
ميشلام بن مناحم الذي كتب يقول « ان نساء مصر قد اعتدن
تخضيب أياديهن بألوان ثابتة قلما استطاع الماء ازالتهما قبل
مضى ستة أشهر ، وذلك على الرغم من اغتسالهن اليومي في
الحمامات العامة^(٣٣٥) » وذكر أيضا المؤرخ المملوكي ابن تغري
يردى عند اشارته الى مقتل خوند بنت صرق مطلقة السلطان
فرج بن برقوق أن أصابعها كانت مقمعة بالحناء^(٣٣٦) .

(٣٣٣) سهر الفلماوى ، ألف ليلة ، ص ٢٣٦ .

(٣٣٤) Mardrus, Le Livre des mille nuits, I, p 402, (٣٣٤)
VIII, p. 192.

(٣٣٥) Dopp, Le Caire vu , BSRGE, XXVI, p 26.

(٣٣٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٦ ، ص ٢٥٤ .

ولم تقتصر نساء مصر على صبغ أياديهن بالحناء على عصر
سلاطين المماليك ، بل اعتدن أيضا طلاء أظافرهن بطلاء أحمر
استرعى كذلك اقتباه بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر
على أواخر هذا العصر (٣٣٧) . هذا بخلاف الوشم الذي اعتادت
كثيرات من النساء أن يزين به أجزاء مختلفة من أبدانهن (٣٣٨)
والتي كانت تقوم به الصانعة كما سبق أن ذكرنا . وطريقة
الوشم كانت تتم عن طريق وخز الجلد بمجموعة من الابز تكون
سبعا في العادة على الشكل المراد رسمه ثم يدلك الموضع
بمزيج من سناج الخشب أو الزيت ومن لبن المرأة . وبعد
أسبوع وقبل أن يبرأ الجرح يوضع عليه معجون من أوراق
السلق أو البرسيم فيكسبه لونا أزرق أو مائلا الى الخضرة وقد
يدلك مكان الابز بالنيلج في بعض الأحيان . وغالبا ما يكون
الوشم في الوجه في أعلى الذقن وعلى ظهر اليد اليمنى واليسرى
أحيانا أو على الذراع الأيمن . وقد يكون على الذراعين معا
وفي القدم وعلى وسط الصدر والجبهة . كذلك درجت بعض
نساء صعيد مصر وهن يتميزن بلونهن الداكن على وشم الشفاه

Schefer, Voyage magnifique, p 211.

(٣٣٧)

(٣٣٨) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ١٦٧ ؛
الشعراني ، لواقع الأنوار ، ج ٢ ، ص ٢١١ .

ليكسبن أسنانهن بريفا ولمعانا (٣٣٩) .

ويبدو أن طريقة الرسم هذه قد أثارت نائرة فقهاء عصر الماليك لأنهم كثيرا ما أشاروا في كتاباتهم الى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله » (٣٤٠) . ويفهم من هذا الحديث الشريف أيضا أن المرأة في ذلك العصر قد اعتادت على نقش الحواجب حتى ترقها ، كما درجت على تفلج أسنانها بالمبرد لتحسين وعلى جردها لتبيض (٣٤١) .

ويبدو أن طريقة الرسم هذه قد أثارت نائرة فقهاء عصر عنها شيء يذكر في كتابات مؤرخي تلك الفترة ، كذلك من الصعب التعرف عليها من خلال تصاوير العصر المملوكي اذ غالبا ما تبدو صور النساء في هذه التصاوير غير واضحة المعالم ونادرا

Lane, The Modern Egyptian, p. 42.

(٣٣٩)

(٣٤٠) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٤ ، ص ١٠٧ ؛ المقدسي ، بذل النصائح ، ورقة ٨٤ أ ؛ التركمانى ، اللمع ، ورقة ١٣٦ ب ؛ الشعرانى ، لواقح الأنوار ، ج ٢ ، ص ٢١١ .

(٣٤١) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٤ ، ص ١٠٧ ؛ زكى مبارك ، التصوف ، ج ١ ، ص ٣٤٥ .

ما تكون الرأس مكشوفة ومع هذا فيفهم من كتابات فقهاء ،
العصر المملوكى أن النساء قد اعتدن على وصل شعورهن اذ
يقول السمرانى « أخذ علينا العهد العام عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم أن لا نقر أحد من النساء على وصل شعرها ... »
وأنه لعن الواصلة أى التى تصل الشعر بشعر النساء والمسنوصلة
أى المعمول بها ذلك (٣٤٢) ، تلك البدعة التى كنا نعتقد فى الواقع
أنها من مستحدثات العصور الحديثة ومن مبكرات الحضارة
الأوربية فى أيامنا هذه . كما اعتادت بعض النساء على تصفيف
شعورهن على هيئة جدائل (٣٤٣) يتراوح عددها حسبما ورد فى
أحدى قصص ألف ليلة وليلة ما بين احدى عشرة صغيرة
 وخمسة وعشرين ، بشرط أن يكون العدد فرديا ، هذا عدا
اضافة ثلاثة خيوط حريرية سوداء الى كل جديلة ، معلق بها
قطع ذهبية صغيرة ذات شكل مستدير تعرف باسم
« صفا » (٣٤٤) .

(٣٤٢) الركمانى ، اللمع ، ، ورقة ١٣٦ ب ؛ السمرانى
لواقح الأثوار ، ج ٢ ، ص ٢١١ ؛ زكى مبارك ، التصوف ،
ج ١ ، ص ٣٥٤ .

Mardrus, Le Livre des mille nuits, VIII, p 192 (٣٤٣)

Lane, The Modern Egyptians, p. 168.

(٣٤٤)

وقد أكثر بعض كتاب عصر المماليك من نصيح النساء باستكمال زينتهن داخل المنازل وذلك بتسريح الرأس وتزيين الشعر والتطيب بالطيب أمام الزوج « حتى يطيب قلبه » (٣٤٥) . كذلك أخذ الفقهاء المعاصرون على النساء عنايتهن بالزينة عند الخروج من المنازل ، وإهمال أنفسهن داخلها أمام الأزواج كما يحدثنا بذلك ابن الحاج « فتتعد المرأة في بيتها على ما هو معلوم من عاداتها بعفش ثيابها وترك زينتها وبحملها وبعض شعرها نازل على جبهتها الى غير ذلك من أوصافها وعرقها حتى لو رآها رجل أجنبي لنفر بطبعه منها غالباً فكيف بالزوج الملاصق لها » (٣٤٦) . فاذا أرادت الواحدة منهن الخروج الى الطريق العام تنظفت وتزينت ، ونظرت الى أحسن ما عندها من الثياب والحلى فلبسته ، وتخرج الى الطريق كأنها عروس تجلى وتمشى في وسط الطريق وتزاحم الرجال وقد لجأت بعض النساء في عصر سلاطين المماليك الى استغلال جمالهن وحسنهن للايقاع بالرجال ، فتخرج الواحدة الى الشارع وقد استكملت زينتها ، وتسير أمام الناس في صورة ملفقة للنظر « ولهن في مشيهن صنعة » (٣٤٧) . فاذا طمع فيها أحد الرجال واستهوته

(٣٤٥) السيوطي ، الانصاح في علم النكاح ، ورقة ٦ ، ٥ .

(٣٤٦) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢٤٤ ، ص ٢٤٥ .

(٣٤٧) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢٤٥ .

وطلبها . ردت عليه أنه لا يمكنها أن تذهب الى أحد . ولكنه يستطيع أن يتبعها الى منزلها وهناك في منزلها يدفع الرجل من شهوته غاليا ، اذ وصل ذلك الثمن أحيانا الى حد قتله وسلب ما معه من أموال^(٣٤٨) . بقي أن نحاول التعرف على مقاييس ومعايير الجمال على عصر سلاطين المماليك . بمعنى آخر ما هي الشروط الواجب توافرها في المرأة لكي تعد من جميلات هذا العصر ؟

قبل أن نجيب على هذا السؤال ينبغي أن نوضح مد البداية أن مقاييس الجمال ومعاييره تختلف من عصر الى عصر ومن مكان الى آخر وذلك تبعا لاختلاف الأدواق واختلاف العادات والتقاليد وأيضا لاختلاف الحضارات . ومع ذلك فمن الممكن التعرف على بعض هذه المعايير من خلال بعض الاشارات الواردة في القصص المصرية من ألف ليلة وليلة حيث يفهم منها أن المرأة كانت تعد من الجميلات اذا كانت يضاء البشرة ناعمة الملمس وذات وجه مستدير يشبه القمر في استدارته ، ومفرطة البداة ، ذات صدر كبير ممتلئ وأرداف عريضة^(٣٤٩) . لذلك

(٣٤٨) ابن تغرى بردى ، مورد اللطافة ، ص ٤ .

Mardrus, Le Livre des mille nuits, I, p. 398 ; (٣٤٩)

III, p 2 ; VI, p. 425

لا عجب ان أقبلت نساء هذا العصر على العناية بسمنتهم
وبداتهن حتى يحزن اعجاب رجال عصر المماليك وان كانت
المصادر التاريخية قد ضنت علينا في الواقع بذكر الوسائل التي
اتبعتها المرأة لكي تزيد من وزنها ولكي تزيد من المعجبين بها
وبشحمها وكل الذي تحت أيدينا عبارة عن نص فريد خلفه لنا
الفقيه المغربي ابن الحاج ، الذي حمل فيه حملة شعواء على
نساء عصره اللائي حرصن على ارتكاب بعض الحماقات من
أجل المحافظة على بداتهن ، « ومن ذلك ما يفعله بعض النسوة
من افطارهن في شهر رمضان المعظم قدره لغير عذر شرعى •
وذلك أن المرأة اذا كانت مبدنة وتخاف أنها ان صامت اختل
عليها حال سمنها فتفطر لأجل ذلك ، وكذلك بعض البنات
الأبكار يفطرهن أهلن خيفة على تغيير أجسامهن عن الحسن
والسمنة • وكذلك من كانت منهن قد عقد عليها زوجها ولم
يدخل بها بعد فترك الصوم خيفة على بدنها أن ينقص » •
وعن الوسائل التي اتبعتها المرأة على عصر سلاطين المماليك
للزيادة من وزنها يروى ابن الحاج « ... وهى أن المرأة اذا
أتت الى فراشها بعد أن كانت تعشت وملأت جوفها فتأخذ عند
دخولها الفراش لباب الخبز فتفتحه مع جملة حوائج آخر فتبتلع
ذلك بالماء ، اذ أنها لا تقدر على أكله لكثرة شبعها المتقدم
وربما تعيد ذلك بعد جزء من الليل يمضى عليها » طلبا للسمنة

ومحافظة على وزنها وبدانتها • ويشير هذا الكتاب الى أمر
سنيح فظيع ترتب على طلب السمينة » وذلك أن بعضهن يأكلن
مرارة الأدمى لأجل أن من استعملها منهن يكثر أكلها وقل أن
تشبع بسبب ذلك ••• ويزيد حسننها ويغضب الرجل بها (٣٥٠) » •

ومن الطبيعي أن ينعكس اهتمام المرأة بجمالها وزينتها على
أدوات التجميل ، التي بلغت على عصر سلاطين المماليك في مصر
شأنا كبيرا لاقبال النساء عليها باهتمام بالغ يساير طبيعتهن وما
عرفن به من ميل الى التزين • حقيقة أن المصادر المعاصرة قد
بخلت علينا بمعلوماتها بصدد نوعية هذه الأدوات وأشكالها ،
الا أن الحفائر الأثرية قد عوضتنا هذا النقص بما أمدتنا به من
أدوات تجميل مختلفة من أمشاط ومرايا ومكاحل وحلى باعتبار
أنها من وسائل التجميل الأساسية التي لا غنى عنها للمرأة
لما لها من أهمية خاصة في زينتها ووجاهتها •

ويشتمل متحف الفن الاسلامى بالقاهرة على مجموعة
كبيرة من أمشاط الشعر التي كانت تستعمل في تصفيف شعر
الرأس • وقد سبق أن رأينا مدى اهتمام نساء العصر المملوكى
بانس شعورهن وابتكار كافة الوسائل لابرار جمالهن • والأمشاط

التي يحتفظ بها متحف الفن الاسلامى مصنوعة من الخشب
أو السن أو القرن أو الأبنوس • ويبدو أن الخشب كان المادة
المفضلة في صناعة الأمشاط لكثرة ما يحتويه هذا المتحف منها ،
فضلا عن رخص تكاليفها مما جعلها تتناسب مع امكانيات جميع
الطبقات • أما مجموعة الأمشاط المصنوعة من السن فمحدودة
العدد ومن المرجح أنها كانت قاصرة على طبقة المماليك لارتفاع
أسعارها •

أما عن أشكال هذه الأمشاط فهي شبه النوع المعروف
في الوقت الحالى « بالفلاية » التي لا تزال تستخدم بكثرة في
ريفنا المصرى وفي بعض الأحياء الشعبية • وتختلف مقاساتها
طولا وعرضا وأسنان المشط من جهتين ، جهة للأسنان
الرفيعة الحادة وجهة للأسنان السميكة القوية • أما الجزء
الأوسط المحصور بين الأسنان فتزينه من الوجهين زخارف
مختلفة بالطلاء أو بالحفر البارز أو الغائر (٣٥١) تتمثل في الأشكال
النباتية وفي رسوم الحيوانات والطيور والأسماك وفي الزخارف
الهندسية وفي الرنوك التي تشير الى شارات الوظائف المملوكية
للسلاطين والأمراء وفي الكتابات التي تتضمن عبارات ومعان
لا تخلو من الطرافة فمثلا نجد على بعض هذه الأمشاط

Ahmad Abd ar-Raziq, Les Peignes, Syria, (٣٥١)
XLIX, p 406 ; La Femme, pp. 222-223.

العبارات التالية : أنا مشط عملت للتسريح / لا أسرح الا لكل
مليح (٣٥٢) وما دعاني الهوا لمعصيته / الا نهاني الحيا
والكرم (٣٥٣) ، رب أختم بخير (٣٥٤) ، من جد وجد (٣٥٥) ، من
كتم سرى / ملك أمرى (٣٥٦) ، الصبر طيب (٣٥٧) . كما تشتمل
بعض هذه الكتابات على بعض الآيات القرآنية (٣٥٨) وعلى بعض

(٣٥٢) مشط رقم ٤٩١٩ محفوظ بمتحف الفن الاسلامى
بالقاهرة .

(٣٥٣) مشط رقم ٣٨٨٣ محفوظ بمتحف الفن الاسلامى
بالقاهرة .

(٣٥٤) مشط رقم ٢/٤٩٥٧ محفوظ بمتحف الفن الاسلامى
بالقاهرة ، ونحتفظ المكتبة الأهلية بباريس بآخر يحمل نفس
العبارة أنظر

Ahmad Abd ar-Raziq, Les Peignes, Syria, XLIX, p. 402.

(٣٥٥) مشط رقم ٨٣٢٣ محفوظ بمتحف الفن الاسلامى
بالقاهرة .

(٣٥٦) مشط رقم ٨٣٣٩ محفوظ بمتحف الفن الاسلامى
بالقاهرة .

(٣٥٧) مشط رقم ١/١٩٤٠٠ محفوظ بمتحف الفن
الاسلامى بالقاهرة .

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p 224 ; Les (٣٥٨)
Peignes, Syria, XLIX, p. 407

الألقاب الخاصة بالنساء مثل الستر الرفيع^(٣٥٩) والحجاب المنيع^(٣٦٠) .

ويوجد أيضا من هذه الأمشاط نوع له أسنان من جهة واحدة ذو شكل مقوس أو مربع كما يوجد نوع آخر مزدوج وله مفصلات من الخشب ، كما يوجد لبعض هذه الأمشاط ثقب في أعلاها يدل على أنها كانت تعلق في رقبة المرأة أو على الحائط لتكون في متناول يدها . ويحدثنا المقرئى عن أماكن بيع الأمشاط قائلا : « أنه بنى فيما بين المدرسة الصالحية وبين الصاغة سوق فيه حوانيت مما يلى المدرسة الصالحية يساع فيها الأمشاط يعرف بسوق الأمشاطيين^(٣٦١) » .

ومن أدوات التجميل الخاصة بالمرأة نذكر أيضا المرايا المعدنية التى تعد من أسبق ما عرف من حاجيات الانسان المتمدين ، فقد جاء ذكرها فى الكتب المقدسة ، كما وجدت نماذج عديدة منها فى قبور المصريين القدماء . وهى عبارة عن

Ahmad Abd ar-Raziq, Les Peignes, Syria, (٣٥٩)
XLIX, p. 400.

(٣٦٠) أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل ، ص ٦٤ ؛
المشط رقم ٤٩٢٢ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة .
(٣٦١) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

قرص مستدير مصنوع من البرونز أو الصلب وله أحيانا مقبض مصنوع من قطعة واحدة مع القرص نفسه أو مضافا اليه . وفي هذه الحالة الثانية نجد أن زخرفة المقبض تختلف تماما عن زخرفة باقى المرآة . ولهذا القرص وجهان ، وجه مصقول يعكس صور الأشياء ووجه عليه زخارف بارزة من عناصر آدمية أو حيوانية أو نباتية أو هندسية أو كتابات نسخية (٣٦٢) .

والأسلوب الشائع استخدامه فى زخرفة المرآة هو تقسيم الوجه غير المصقول الى عدة دوائر ذات مركز واحد ، وتزخرف كل دائرة من هذه الدوائر بعنصر زخرفى من العناصر السابقة هذا وقد يشغل الموضوع الزخرفى سطح المرآة كله بدون تقسيمه الى هذه الدوائر كما نرى أحيانا دائرة صغيرة فى الوسط ، وجدير بالذكر أن بعض هذه المرآيا مكنت بالذهب والفضة مثل تلك المرآة التى يحتفظ بها المتحف البريطانى بلندن والتى صنعت خصيصا لزوجة أحد امراء المماليك (٣٦٣) ، والمرآة التى بعث بها الى السلطان الأشرف برسباى والتى اشتراها متحف الفن الاسلامى من رالف هرارى فى الفترة الأخيرة .

(٣٦٢) أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل ، ص ٦٩ .

Wiet, Inscriptions, JA, CCXLVI, pp. 243-246 ; (٣٦٣)

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pl. III/B.

وهى عبارة عن مرآة مستديرة من الحديد عليها آثار تذهيب
وظهرها مزين بدائرة مركزية مملوءة بزخارف نباتية تتخللها
أسلاك مشعة من نجمة مركزية سداسية الرؤوس يحيط بها
شريط من الكتابة النسخية المملوكية باسم السلطان المذكور
وهى تمتاز بمقبضها المصنع المحزوز المزين بشريط من الزخارف
الهندسية^(٣٦٤) . ومن بين مرآيا العصر المملوكى تشير الى مرآة
ثالثة بمتحف الفن الاسلامى وهى من البرونز وعلى ظهرها
زخارف نباتية وعلى وجهها المصقول كتابات قرآنية وأخرى
سحرية ، الأمر الذى يدل على أنها كانت تستعمل أيضا كتميمة
تقى صاحبته من الجسد^(٣٦٥) . ولأهل الصين اعتقاد راسخ فى
أن المرأة تفيد فى السحر والشعوذة وأنها من الأدوات المقدسة
التي لا غنى عنها وكانوا يعتقدون أنها تصور الصدق والثبات ،
فى الوقت الذى رأى فيها الغريبيون أنها عنوان الكذب
والنفاق^(٣٦٦) .

ومن معدات التجميل التى حرصت المرأة على اقتنائها

(٣٦٤) معرض الفن الاسلامى فى مصر ، ابريل ١٩٦٩ ،
لوحة ١٧ ؛

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p 225, pl. IV/A

(٣٦٥) أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل ، ص ٧٧ ،
رقم ١٥٣٣٧ .

(٣٦٦) أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل ، ص ٧٠ .

المكاحل ، التي يضم متحف الفن الاسلامى أعدادا وفيرة منها صنعت من مواد مختلفة مثل الزجاج والخشب والفضة والنحاس، عثر عليها المنقبون عن الآثار في حفائر مدينة الفسطاط ، وبعضها لا تزال آثار الكحل عالقة بجدرانها وهذه المكاحل من التنوع والابداع بحيث تشمل معظم الأشكال التي تخرجها المصانع في العصر الحديث وتدل على أنها كانت من معدات التجميل ذات الصدارة التي اهتمت المرأة باقتنائها منذ أقدم العصور (٣٦٧) .

وللمكاحل مهما اختلفت مادتها مرود ينغمس فيها عند قفلها . والغرض من وجوده هو استعماله في أغراض التجميل التي يستعمل فيها الكحل سواء في الحواجب أو في رموش العين وقد اختلفت مواد هذه المراد بصرف النظر عن مادة المكحلة نفسها ، فقد تكون المكحلة من العاج ومرودها من الخشب أو العكس ، وقد تكون المكحلة من الزجاج وينغمس فيها مرود من البلور مثلا . وأغلب الظن أن هذه المراد كانت تبل بالماء قبل غمسها في المكحلة حتى يتعلق بها الكحل المسحوق لبسهل استعماله في أغراض الزينة خاصة وقد استعاضت بعض النساء بمسحوق الكحل عن الشعيرات المنساقطة ، مما يدل على

المستوى الذى بلغه فن التجميل حينذاك ، وعلى ما كان للحكل من منزلة رفيعة بين المواد التى أستخدمت فى فن التجميل على عصر سلاطين المماليك . ولعل من أبداع مكاحل هذا العصر التى يحتفظ بها الفن الاسلامى واحدة مصنوعة من السن . وفى أعلاها تجويف لتخزين الكحل له غطاء كمثرى الشكل ، ينتهى من أعلى بسلسلة من المعدن ليعلق فيها المروء الذى خصص له تجويف آخر أضيق من السابق بجوار المكحلة . أما قاعدتها فذات شكل كأسى مقلوب . وبدنها ذو شكل منشورى سدس الاضلاع ومكسو بطبقة دقيقة من الفسيفساء تتألف من قطع صغيرة من الأبنوس والسن تؤلف فى مجموعها أشكالا هندسية رائعة . وهذا الأسلوب من الزخرفة يعرف لدى المتخصصين فى الفن الاسلامى باسم الترصيع وهو من الأساليب التى شاع استعمالها فى العصر المملوكى (٣٦٨) .

كذلك كانت الحلى من أهم أدوات التجميل التى لا غنى عنها للمرأة فى مصر المملوكية غير أنه من المؤسف حقا أن تكون النماذج التى وصلت إلينا منها نادرة جدا . ولعل السرف ذلك أن الحلى والمعادن النفيسة كانت تصهر ويعاد سكبها عند ما يتقدم

(٣٦٨) أحمد ممدوح حمدي ، معدات التجميل ، ص ١١٣ ؛

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 227, pl IV /C

بها العهد فضلا عن أن قيمتها المادية تبعث على التصرف فيها •
وما أكثر الأوقات التي كان يساد فيها القحط أو يضطرب فيها
حبل الأمن •

أما المصادر التاريخية فإن كل ما فيها عبارة عن بيانات
بعدد القطع وثوعها ونادرا ما تحتوى على وصف دقيق للحلى
يمكننا عن طريقه أن نقف على طرزها ونوع زخارفها وأسلوب
صناعتها على وجه سليم • ولعل مرجع هذا القصور أن أكثر
هؤلاء المؤلفين لم ير تلك الحلى والجواهر التي عنى بالكتابة
عنها ، أما لأنها كانت محفوظة في خزائن لم يكونوا يستطيعون
الوصول إليها ، أو لأنها كانت زينة للخوندات وزوجات الأمراء
والمحظيات والجواري وأما لأن ما كتبه كان منقولا عن مصادر
ليس لها بالحلى والجواهر دراية كبيرة •

ومهما يكن من شيء فقد وصلنا من حلى العصر المملوكى
بعض الأمثلة القليلة النادرة أهمها دلالة من الذهب عليها كتابة
بالخط النسخ وزخارف بالمينا المتعددة الألوان • والمينا عبارة
عن مادة زجاجية نصف شفافة تذاب وتستخدم في زخرفة المعادن
كالذهب والفضة والنحاس • وقد عرفت العصور الوسطى
طريقتين لزخرفة الحلى بالمينا : طريقة يطلق عليها المينا ذات
الفصوص • وفيها تصب المينا في حواجز رقيقة ذهبية تلتصق

على المعدن وأخرى تعرف بطريقة الحفر ، وفيها توضع المينا في تجاويف حفرت خصيصا لها على صحيفة من المعدن ثم تسوى التحفة في النار لتثبت المينا . هذا ومن الملاحظ أن الطريقة الأخيرة قد شاعت على عصر سلاطين المماليك ، ربما لكثرة الطلب على الحلى المزينة بالمينا ، خاصة وأنها لم تكن تتطلب تعباً ومهارة كبيرة في صنعها مثل طريقة المينا ذات الفصوص .

وبمناسبة ذكر الدلائل ، نشير هنا الى استعمال نساء الفلاحين لهذا النوع من الحلى فقد كانت الدلائل الخاصة بهم تتألف من سلاسل فضية تعلق على الأصداع وترخي الى الصدر ويجعل في آخرها جلاجل من فضة وبرق ونحو ذلك (٣٦٩) . كما عرفت نساء هذا العصر القلائد المصنوعة من العنبر والتي سميت بالعنبرية وقد ذكر المقرئى انه لا يكاد يوجد « بأرض مصر امرأة وان سفلت الا ولها قلادة عنبر (٣٧٠) » .

ووصلنا من حلى نساء هذا العصر بعض العقود الذهبية

(٣٦٩) الشربى ، هز القحوف ، ص ٦٠ .

(٣٧٠) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٠٢ ؛ ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٣٩ ؛ اقبطا الخصكى ، التحفة ، ورقة ٧٩ ب .

منها واحد محفوظ بمتحف الفن الاسلامى يتألف من عشرين
سملكا شغل « شفتشى (٣٧١) » أى ذو زخارف مخرمة تشبه
الداقتلا ، شكلها يضاوى ، وبأعلى كل منها لؤلؤة صغيرة
الحجم . ويتدلى من العقد ثلاث دلايات مستديرة بوسط كل
منها حجر مستدير ، الوسطى منها مثبتة فى شكل هلال صغير
مطعم بالمينا يعلوه كتابة دعائية نصها « عز دائم (٣٧٢) » . هذا
فضلا عن الأطواق المرصعة والأطواق الفضية التى كانت شائعة
لدى نساء الفلاحين والتى كانت تعرف عندهم بأسم
« الضامن (٣٧٣) » .

ومن الحلى التى أقيمت عليها المرأة فى مصر المملوكية
الأساور التى كانت تصنع من الذهب المفرغ أو المجدول، والتى
كان طرفاها ينتهيان برؤس حيوانية مثل الأسد أو التنين (٣٧٤) ،
التى كانت تقبض على محبس السوار الذى كان يعلوه فى بعض

(٣٧١) عن هذا اللفظ أنظر :

Lane, The Modern Egyptians p 574

Ahmad Abd ar-Raziq; La Femme, p 228, pl V; (٣٧٢)

أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل ، ص ١٣١ ، لوحة ٥٥ .

(٣٧٣) السربنى ، هز القحوف ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

(٣٧٤) أنظر السوار رقم ١٥٤٧١ ، والسوار رقم ١٤٨٠٢ ،

والسوار رقم ١٥٥٤٦ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة .

الأحيان كتابات عريه تنضن بعض الأمتال السائعة مثل « عز من قنع ، وذل من طمع^(٣٧٥) » . هذا عدا الغوايش الزجاجية الملونة التي أمدنا الحفائر الأثرية بكميات كبيرة منها ، والتي لاشك في أنها كانت بمثابة أساور نساء عامة الشعب^(٣٧٦) . كما يفهم من كتابات الرحالة الأجانب الذين زارو مصر في العصر المملوكي أن أصابع النساء كانت مزينة بخواتم من الذهب والفضة المحلاة بالفصوص التمينية^(٣٧٧) . ويبدو أن اقبال النساء على هذا النوع من الحلى كان شديدا لدرجة أن المحتسب كان كثيرا ما يحلف باعة الخواتم أن يصدقوا في أوزان أثمانها للزبائن ، كما كان يحرم عليهم أن يعملونها باليسير من الفضة ، ويحشونها بالرصاص ، والزفت حتى لا تكون سريعة الكسر والتهشيم . وكان عليه أيضا أن يجبرهم على أن يصدقوا في نعت فصوصها ، « فان أكثرها زجاج مصنوع ومطبوخ في دهان الزبادى^(٣٧٨) » .

(٣٧٥) أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل ، ص ١٣٢ ، رقم ١٦٤٣٥ .

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p 228, (٣٧٦)
pl. VI/B

Dopp, Le Caire vu . . . , BSRGE, XXVI, p. 114 (٣٧٧)

(٣٧٨) ابن بسام ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ١٠٧ .

وعلى الرغم من أن أغلب فقهاء هذا العصر قد نادوا بضرورة
تحريم ثقب الأذن والأنف فقد وصلتنا بعض الأقراط الذهبية
والفضية من العصر المملوكي ومنها قرط كبير من الذهب
محفوظ بمتحف الفن الاسلامي على شكل دائرة يتوسطها شريط
مستطيل به زخارف ذات أشكال نباتية وهندسية مفرغة، وتتدلى
من أسفله حلقتين تكتنفان دائرة صغيرة بها زخارف مخرمة (٣٧٩) .
كذلك يحدثنا أحد الرحالة الاجانب بأن النساء قد اعتدن أن
يثقبن آذانهن لتزيينها بالأحجار الثمينة ، وبأن هذه الثقوب
تتراوح ما بين ثمان وعشر ثقوب (٣٨٠) .

واعتادت نساء هذا العصر ان تتخذ من الخلاخيل زينة
لأرجلهن « ويروى لنا الفقيه المغربي ابن الحاج كيف درجت
نساء العصر المملوكي على جعل الخلخال فوق السراويل حتى
تظهر للعيان » . « وقد ضرب برجلها في الغالب فيسمح

(٣٧٩) أحمد ممدوح حمدي ، معدات التجميل ص ١٣٣ ،
لوحة ٢/٥٦ ؛

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 229, pl. VI/C.

Dopp, Le Caire vu . . . , BSRGE, XXVI, (٣٨٠)
p. 114.

له حس (٣٨١) » . كذلك اتخذت نساء الفلاحين خلاخيل لها من النحاس أو الحديد المطلي بالقصدير (٣٨٢) .

وتتيجة لاقبال نساء العصر المملوكى على الحلى ، أن حرص سلاطين هذه الدولة على بعث الطمأنينة فى نفوس الناس فأنشأوا دار العيار لمراقبة تجارة الحلى . وكانت الدولة تنفق على هذه الدار الديوان فيما يحتاج اليه من الأصناف كالحديد والنحاس والخشب وغير ذلك من الآلات وأجر الصناع والمشرفين ، ولاتباع الصنح والموازين والأكيال الا بهذه الدار . كذلك كان على محتسب مصر والقاهرة حينذاك أن يراقب الصياغ ويمنعهم من أن تكون أكوار السبك معلقة أو مرتفعة حتى لا يخفى ما يسبك فيها عن أعين صاحبه سواء أكان ذهب أو فضة ، وكان عليه أيضا أن يحذرهم من السرقة بواسطة الماسك أو سيخ النار ومن دس النحاس أو غيره الى ما يقوم بسباكته ، وكثيرا ما حتم على كل صائغ أن يجعل عنده عينة صغيرة مما يصنعه ويصوغه لكل زبون حتى يمكن الرجوع

(٣٨١) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ١٦٨ ؛ ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٧٦ .

(٣٨٢) الشربيني ، هز القحوف ، ص ٦٨ .

اليها عند الحاجة وفي حالة حدوث أى شكوى « حنى يرول
الشك والريبة (٣٨٣) » •

وعمدت الدولة المملوكية أيضا الى العناية ببيع الحلى
وأقامت لها الأسواق الخاصة مثل سوق القفصيات الذى كتب عنه
المقريزى قائلا « أنه كان معد لجاوس أناس على تخوت تجاه
شبايك القبة المنصورية . وفوق تلك التخوت أقفاص صغار من
حديد مشبك فيها الطرائف من الخواتيم والفصوص وأساور
النسوان وخلاخيلهن وغير ذلك (٣٨٤) » •

تنتقل الآن الى الحديث عن ملابس المرأة فى العصر
المملوكى باعتبارها أحد وسائل الزينة الأساسية . بيد أنه قبل
أن نبدأ الاشارة الى هذه الملابس والى أنواعها المتعددة وطرزها
المختلفة ينبغى أن ننبه الأذهان الى أن تفكير المرأة فى كل زمان
ومكان يبدو متجانس ، وملابسها كانت ولا زالت عرضه للتغيير
والتبديل فهى تطلع علينا كل حين وآخر بزي جديد • وليس
تغيير الأزياء وتبديلها عند النساء فى الحقيقة الا ضربا من مللهن
للنظام الاجتماعى ، فهن أسرع الناس الى الملل والرغبة فى التغيير

(٣٨٣) ابن بسام ، نهاية الرنة ، ص ١٠٦ .

(٣٨٤) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

والتجديد وكلما كثر ملهين كنز نغيرهن فرارا من السأم وطلباً للراحة • وإذا ابتكر زى جديد عد متال للأناقة فى وقته فتنقاد له كما هو معروف نفوس النساء جميعا بلا أدنى تفكير •

ولعل مرجع تلون الأزياء والملابس وتنوعها عند النساء فى مختلف أدوار التاريخ ، الى اختلاف الذوق والاهواء ومراعاة البيئة المحلية خاصة عندما تلعب الظروف الاجتماعية دورا هاما فى تشكيل هذه الأزياء وفى تنوعها عند النساء ، وليس ثمة شك فى أن لكل عصر طابع خاص يميزه عن غيره ولاسيما فى أحواله الاجتماعية • فالمرأة فى مصر على عصر المماليك كانت تختلف اختلافا شاسعا عنها بعد الفتح العثمانى لمصر • فقد ترتب على تغير الأحوال وقيام الحروب والثورات وسقوط المماليك وتفش المجاعات والمحن ان النساء كن يسايرن الزمن ويغيرن فى هندامهن كما سوف نرى من دراستنا للملابس المرأة فى العصر المملوكى ، التى يحسن أن فبدأ حديثا عنها بالاشارة الى الأنواع الداخلية منها ، والتى يأتى على مقدمتها المتز ، وهو نوع من السراويل التى كانت تصل الى الركبتين^(٣٨٥) وهو يشبه فى هذا

Dozy, Vêtements, p 38 ; Ashtor, L'Evolution (٣٨٥)
des prix, JESHO I, p. 42 ; Histoire des prix, p. 348 ; Mayer
Costume, p. 69.

ما كان محتما على الرجال ارتدائه في الحمامات العامة (٣٨٦) .
 ورغم قلة المعلومات التي وصلتنا عن شكل المنز الخاص بالمرأة
 وعن أنواعه ، فقد عثرنا في أحد عقود الزواج التي ترجع الى
 نهاية العصر المملوكي ، على اشارة لطريقة تفيدنا في التعرف على
 أسعار هذا النوع من الملابس الداخلية ، اذ جاء في هذه الوثيقة
 أن المنز كان يباع بستة دراهم مؤيدية (٣٨٧) . وشاع أيضا
 استعمال النساء لنوع من السراويل الطويلة بدليل مارواه المؤرخون
 عند اشارتهم الى مقتل شجر الدر أولى سلاطين هذه الدولة التي
 عثر عليها في أحد الخنادق أسفل القلعة وليس عليها سوى سراويل
 شد الى وسطها بواسطة تكة « استولى عليها بعض أراذل
 العامة (٣٨٨) » . وما ذكره المقرئ من أن السلطان الظاهر
 بيبرس قد قطع أيدي جماعة من نواب الولاية والمقدمين
 والخبراء ، لأنه رأى بعض المقدمين وقد أمسك امرأة وعراها

(٣٨٦) الشوكاني ، البدر الطالع ، ج ١ ، ص ٢٨٤ ؛ ابن
 تغري بردي ، المنهل الصافي ، ج ٣ ، ورقة ١٨٨ ؛ المقرئ ،
 السلوك ، ج ٤ ، ورقة ٣٤١ أ ؛ السخاوي ، الضوء اللامع ،
 ج ٣ ، ص ٣١٠ ؛ ابن شاکر ، فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٤٤ .

Ashtor, L'Evolution des prix, JESHO, IV. (٣٨٧)
 p. 42 ; Histoire des prix, p. 348.

(٣٨٨) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٠٤ ؛ ابن اياس ،
 بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٩٢ .

سروالها (٣٨٩) ، كما روى أيضا في أحداث عام ١٣٤١/٧٤٢ أنه أبيع سراويل زوجة الأمير أقبغا من عبد الواحد عقب مصادرتة بمائتى ألف درهم فضة (٣٩٠) . وأشار أيضا المؤرخ ابن تفرى بردى أنه عثر لدى الوزير شمس الدين موسى على ما يزيد عن أربعمائة سروال كانت ملكا لزوجته (٣٩١) . هذه الاشارات تقوم دليلا دامعا على مدى شيوع استخدام هذا الزى طوال عصر المماليك وحسبنا أن نشير هنا الى أن السراويل قد جذبت انتباه الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر على عصر المماليك (٣٩٢) ، بل سجلوها لنا في رسومهم النسائية التى زودوا بها كتب الرحلات التى تركوها لنا — وذهب بعضهم أيضا الى الادعاء بأن هذه السراويل النسائية كانت من الجلد المزين بأشغال التخريم وأن النساء كن يرتدين هذا الزى دون الرجال (٣٩٣) . ويفهم كذلك

(٣٨٩) أبو الفضائل ، كتاب النهج السديد ، ج ١ ، ص ٤٧٢ — ٤٧٣؛ العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٧ ، ورقة ٥١٩ ؛ المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٤٠ .

(٣٩٠) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٦٤ .

(٣٩١) ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ١١١ .

Frescobaldi, Viggi, p. 95 ; Arnold von Harff, (٣٩٢)
Pilgerfahrt, p. 106 ; Dopp, Le Caire Vu . . . , BSRGE, XXVI,
p. 114.

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 233. (٣٩٣)

مما كنبه الفقيه المغربي ابن الحاج أن نساء عصره قد اعتدن ارتداء هذه السراويل خارج المنزل ، لأن يعيب عليهن بقائهن « في بيوتهن ٠٠٠ بغير سراويل ٠٠٠ ولا يلبسن السراويل الا عند الخروج (٣٩٤) » . ومع هذا فقد شاع استخدام السراويل الى درجة أن أطلق عليها في أواخر هذا العصر اسم «الباس» (٣٩٥) .

وجرت العادة أن ترتدى النساء فوق هذه السراويل قمصانا ، عدت أيضا كما يفهم من بعض قصص ألف ليلة وليلة من بين الملابس الداخلية (٣٩٦) ، وكانت ترى غالبا من تحت ملابسهن العلوية مما كان سببا في غضب أولى الأمر في الدولة المملوكية ، اذ حدث في سنة ١٣٥٠/٧٥١ أثناء وزارة الأمير منجك أن وجد نوع خاص من القمصان انتشرت « موضته » انتشارا كبيرا وأطلق عليه اسم « بهطلة » وكان له ذيل طويل ينسدل على الأرض وأكمام يبلغ اتساعها ثلاثة أذرع ومبلغ مصروفه ألف درهم فما فوق . فقام الوزير منجك في إبطالها ، وطلب والى القاهرة ورسم له بقطع أكمام النساء وأخذ ما عليهن ، وبعث أعوانه الى بيوت أرباب الملهى - حيث كان كثير من النساء -

(٣٩٤) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

Mayer, Costume, p. 70. (٣٩٥)

Mardrus, Le Livre des mille nuits, III, p. 60 (٣٩٦)

فهجموا عليهن ، وأخذوا ما عندهن من ذلك وكبسوا أيضا
مناشر الغساليين ودكاكين باعة الملابس النسائية وأخذوا ما فيها
من قمصان النساء ، وقطعها الوزير منجك . ووكل مماليكه
بالشوارع والطرقات ، فقطعوا أكمام النساء ، ونادى فى القاهرة
ومصر بمنع النساء من لبس هذه القمصان ، وهدد بأنه متى
وجدت امرأة عليها شئ مما منع ، أخرج بها وأخذ ما عليها .

ويروى لنا المؤرخون كيف اشتد الأمر على النساء ،
وكيف تم القبض على عدة منهن ، وكيف أخذت أقمصتهن . بل
أن الوزير منجك ذهب الى اقامة أخشاب على سور أبواب
القاهرة - الرئيسية - باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح -
وعلق عليها تماثيل معمولة على صور النساء وعليهن القمصان
الطوال ، يقصد ارهابهن وتخويفهن فانقطعت النساء عن الخروج
الى الأسواق وعن ركوب حمير المكارية وكان اذا عشر على
واحدة منهن كشف عن ثيابها فى الحال (٣٩٧) .

بيد أن هذا التحريم لم يستمر طويلا وعادت النساء من
جديد الى ارتداء هذا النوع من الأقمصة الطويلة ذات الأكمام
الواسعة مما اضطر الأمير كمشبعًا قائب السلطنة عام ٧٩٣/١٣٩١

(٣٩٧) المقربرى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٨١٠ ؛ خطط ،
ج ٢ ، ص ٣٢٣ ؛ ابن اناس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

أن ينتهز فرصة غياب السلطان برقوق من الديار المصرية ، وينادى بالقاهرة أن لا تلبس امرأة قميصا واسعا ، ولا تزيد على تفصيل القميص عن أربعة عشر ذراعا . وكان النساء قد بالغن في سعة القمصان ، حتى كان القميص الواحد يفصل من اثنين وتسعين ذراعا من البندقى الذى عرضه ثلاثة أذرع ونصف ، فيكون مساحة القميص زيادة على ثلثمائة وعشرين ذراعا . وندب الأمير كمشيفا جماعة نزلوا الى أسواق القاهرة وشوارعها ، وقطعوا أكمام النساء الواسعة ، فأمتنع النساء من يومئذ ، أن يمشين بقمصان واسعة مدة نيابة الأمير كمشيفا ، ثم عدن الى ذلك بعد عودة السلطان (٣٩٨) « من بلاد الشام » ومع هذا فمن الخطأ الاعتقاد بأن القمصان التى صنعت طبقا لأوامر الأمير كمشيفا قد بطلت تماما ، اذ أن المؤرخ ابن تغرى بردى ظل يشاهد هذه الأقمصة التى عرفت بأسم « القمصان الكمشفاوية » لمدة سنين عديدة ووصفها بأنها كانت ذات اكمام كالقمصان التى ترتديها البدويات (٣٩٩) .

(٣٩٨) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٧٥٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ١٢ ، ص ٣٠ ؛ العبنى ، عقد الجمان ، حوادث سنة ١٣٩١/٧٩٣ ؛ ابن حجر ، انباء الفهر ، ج ١ ، ورقة ٩٩ ب ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

(٣٩٩) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٧٥٠ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٢٦٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٢ ، ص ٣٠ .

ويبدو أيضا أن الإفراط في اتساع أكمام القمصان وطولها قد امتد إلى نساء الفلاحين . فقد روى أحد المعاصرين أن ملابس نساؤهم « على شكل الشعراء في وسع الأكمام وزيادة فإن كم المرأة منهن يسع الرجل يدخل منه ويخرج من الكم الثاني » وذكر أيضا أنه ربما جامع الرجل زوجته من كمها دون حاجة لرفع بقية الثوب ، كما حكى لنا أنه بعد زواجه بواحدة منهن ... « كثيرا ما جامع زوجته من كم قميصها (٤٠٠) !! » .

والى جانب القمصان الطوال ذات الأكمام الراسعة عرفت نساء عصر المماليك القمصان القصيرة الضيقة التي أطلق عليها اسم قنادير (٤٠١) ، انظر ابن الحاج على نساء مصر في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي « تلك البدعة التي أحدثتها في قمصان من جعلها ضيقة وقصيرة » ، كما دعى معاصريه الى منع النساء من تلك الأكمام القصيرة التي أحدثتها مما يدل على أن قمصان النساء في هذا العصر لم تظل في شكلها على حال واحد (٤٠٢) ، بل غلب عليها كثرة التغير والتبدل وظهور

(٤٠٠) الشرنوبى ، هر القحوف ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

(٤٠١) Freccobaldi, visit, p. 163 ؛ أقنا الخاصكى ، التحفة ، ورقة ١٣٢ .

(٤٠٢) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢٠١ ، ٢١١ .

المستحدثات « والموضات » كعهدنا بملايسهن اليوم • وقد أخذ بعض المعاصرين على النساء أن « لهن محدثات من المنكر أحدثها كثرة الارفاء والاتراف ، وأهمل انكارها حتى سرت في الأوساط والأطراف فقد أحدثن *** من الملابس مالا يخطر للشيطان في حساب (٤٠٣) » •

وفوق هذه الملابس الداخلية ارتدت المرأة نوعا من الزى الواسع عرف بأسم الثوب (٤٠٤) ، التي ضنت علينا المصادر الادبية والتاريخية بذكر أشكاله وأوصافه ، وان كان ابن الحاج قد عاب على نساء عصره ارتدائهن للأثواب القصيرة ذات الاكمام القصيرة المتسعة التي تظهر الصدور والنفود ، وتركهن لبس السراويل « والوقوف على هذه الحالة في باب الريح وعلى الأسطح وغيرها فمن رفع رأسه أو التفت رأى عورتها (٤٠٥) » • وهذا يعنى ببساطة أن نساء عصر المماليك قد عرفن « المينى جيب » قبل نساء عصرنا الحالي بما يقرب من ستة قرون من الزمان رغم ما عرف به هذا العصر من حجاب المرأة والنشدد على عزلتها •

(٤٠٣) ابن الاخوه ، معالم القرية ، ص ١٥٧ •

Mayer, Costume, p 70 (٤٠٤)

(٤٠٥) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢٤٤ •

وكانت المرأة تلتف جميعها بملاءة أو سبلة متسعة فضفاضة عرفت بعدة أسماء متعددة نذكر منها البغلطاق والمرط والحلة والفرجية والكاميلية والملحفة والشاية أو الساية والأزار الذى كان أكثر السبلات شيوعاً (٤٠٦) . وهو عبارة عن ملاءة طولها حوالى ثلاثة أذرع وعرضها يقرب من ذراعين وغالباً ما توقفت مقاييس هذه الأزر على حجم المرأة وعلى مدى طولها أو قصرها (٤٠٧) . ويمكن التعرف بسهولة على هذا النوع من الملابس النسائية من خلال إحدى اللوحات الفنية للرسم الايطالى بلينى ، تمثل القديس سان مارك يعظ فى إحدى كنائس الاسكندرية وترجع الى سنة (١٤٦٠ - ١٥٠٠) (٤٠٨) . وتحديثنا المصادر التاريخية أن هذه الأزر كانت تصنع فى بداية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى من الحرير ، فقد روى المقرئى أن نساء هذا العصر قد أحدثن الأزار الحرير بألف درهم ، وأنهن أبطلن لبس الأزار البغدادي مما اضطر أهل الدولة الى العمل على ابطال الأزر الحريرية والمنادة بمنع بيعها، بل وتهديد المخالف بمصادرة جميع أمواله لحساب السلطان حتى امتنعت النساء عن لبس الأزر الحريرية لدرجة أنه نودى

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pp. 236-237. (٤٠٦)

Dozy, Vêtements, pp 25, 28 ; Mayer, Costume, (٤٠٧)

• p. 70

André Chastel, Italie renaissance, pl 13 (٤٠٨)

على أزار من الحرير بمبلغ ثمانين درهما ، ومع ذلك فلم يلتفت
له أحد رغم لهفة نساء هذا العصر على هذا النوع من الملابس
الحريرية (٤٠٩) .

يبد أن هذا التحريم لم يستمر كما هو معتاد فترة طويلة
من الزمان ، لأن الرحالة الأجانب الذين وجدوا في مصر على عصر
المماليك أشاروا في كتب الرحلات التي خلفوها لنا ، إلى ارتداء
المرأة المصرية للأزر الحريرية الفاخرة وإلى مدى إقبالها على هذا
النوع من الثياب الباهظة الثمن ، ووصفوا هذه الأزر بأنها كانت
بيضاء اللون لجميع المسلمات (٤١٠) ، وهذا يخالف ما تطور إليه
الوضع بعد ذلك في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي عندما
أصبح من المراسى في تزويره المرأة المتزوجة أن تكون سوداء
اللون ولا تلبس السبلة البيضاء سوى الآنسات (٤١١) تميزا لهن
عن المزوجات .

أما عن نساء أهل الذمة فقد كان لزاما عليهن ارتداء أزر
ذات ألوان متميزة ، فذات المسيحيات نابسن أزر ذات لون

(٤٠٩) المقرئى ، حطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ ؛ السلوك ،
ج ٢ ، ص ٨١١ .

(٤١٠) Schefer, Voyage magnifique, p. 211.

(٤١١) كلوت بك ، لمحة عامة ، ج ١ ، ص ٦١٢ .

أزرق ، واليهوديات ذات لون أصفر ، والسامريات ذات لون أحمر . وكان من الضروري أن يشد عليها بحزام أو بزناركما كان يسمى في ذلك الوقت ، وقد روعى أن يكون من ألوان متنوعة ووفق اللون المخصص لكل طائفة فمثلا كان الأصفر لليهوديات، والأزرق للمسيحيات ، والأحمر للسامريات . على أنه من الواضح ان هذه القيود في الزى لم تفرض على الذميات من النساء الا في أوقات الأزمات فقط ، ولا يوجد في المصادر المعاصرة ما يثبت الزامهن بالقيود السابقة في الملبس في الأوقات العادية ، بل على العكس هناك ما يشير الى تمتعهن بلبس أفخر الثياب وأجمل الأزياء دون تفرقة بينهن وبين المسلمات . فقد وصف أحد المعاصرين نساء أهل الذمة في أيامه بأنهن « اذا خرجن من دورهن ومشين في الطرقات فلا يكدن يعرفن ، وكذلك في الحمامات . وربما جلست النصرانية في أعلى مكان من الحمام والمسلمات يجلسن دونها . ويخرجن الى الأسواق ، ويجلسن عند التجار ، فيكرموهن بما يشاهدون من حسن زيهم فلا يدرون انهن أهل ذمة ... » (٤١٢) .

والواقع ان ملابس النساء في مصر المملوكية كانت تتأثر بمختلف الحوادث السياسية والاكتشافات الأثرية تماما كما

(٤١٢) ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ٤٣ .

حدث في أوروبا وأمريكا عند ما عرضت تحف توت عنخ آمون — فلم تترك نساء مصر المملوكية حادثة تمر دون أن يسجلنها في أزيائهن ومن ذلك انه اكتشفت في أواخر القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى بالجهة الشرقية من القاهرة عمودان كبيران من الرخام الأبيض بقصر الزمرد أحد قصور الفاطمية وكان لاكتشافها ضجة في القاهرة حيث تجمع الناس من كل صوب وحذب لمشاهدة هذين العمودين * وكان هذا اليوم من الأيام المشهورة في القاهرة ووصفه الشعراء في قصائدهم وأبقى له النساء ذكرى ثيابهن فاخترعن زى « جر العمود » وشاع هذا الزى بين النساء وعملن نماذج من ثياب الحرير وتطريز المناديل، فقد ذكر المقرئى ما نصه : « وعملوا نموذجات من ثياب الحرير وتطريز المناديل عرفت بجر العمود (٤١٣) ... وشاع هذا الزى في مصر وأقبل النساء عليه وكانت أزهرن رفيعة جدا تشبه العمدان في طولها وعم استعمالها عندهن جميعا » . مسا جعل العلماء لا ينظرون اليها بعين الرضى لأنها كانت تكسب الجسم جمالا وروعة وكثيرا ما يكشف عن تفاصيله *

واستعملت المرأة على عصر المماليك أغطية للرأس ذات أشكال وأنواع متعددة أهمها جسيما العصاة التى كانت تلف

(٤١٣) المقرئى ، خطط ، ص ٤٥٠ .

كالعمامة حول جزء من الأزار الذي كان يغطي شعر المرأة (٤١٤) ويرجع أنها كانت نسبة في هيئاتها أغطية الرأس التي تستعملها البدويان في وقتنا الحالي . وكثيرا ما تدخلت الدولة لتحديد أشكال هذه العصائب مثلما حدث سنة ١٨٧٦/١٤٧٢ عندما رسم السلطان فابتنباي لبنيك الجمالي المحتسب بأن بنادي في القاهرة : « بأن امرأة لا تلبس عصاية مقنعة ، ولا سراقوش حربر . وأن تكون ورقة العصاية طولها ثلث ذراع ، وهي بختم السلطان من الجانبين . وكتب بذلك فسائم على من يبيع أوراق النساء ... وصارت رسل المحتسب يطوفون في الأسواق ، فان وجدوا امرأة بعصاية مقنعة أى قصيرة أو سراقوش يضربونها ، ويجرسونها والعصاية معلقة في رقبتها ، فقلق النساء من ذلك ، وصارن الأمراء اذا خرجت الى حاجة تكشف رأسها ونمشى بلا عصاية ، أو تلبس عصاية طويلة ، فلما طال عليهن الأمر لبسن العصائب الطوال التي رسم بها السلطان ، يلبسونها اذا خرجن الى الأسواق فقط على كره منهن ، ويلبسن العصائب المقنعة في بيوتهن » . ولعله من الطريف أن نشير هنا الى تلك الأبيات التي أنشدها في هذه المناسبة الأديب زين الدين بن النحاس أحد شعراء هذا العصر الذي قال :

Mayer, Costume, p. 71 ; Ashtor, Les prix dans (٤١٤)
l'Egypte, JESHO, VI, p 171, note (1), Ahmad Abd ar-Raziq.
La Femme, p 238

أمر الامام مليكنا بعصايب في لبسها عسر على النسوان
فقلقن ثم أطعنه ولبسها ودخلن تحت عصايب السلطان

والواقع ان هذا الممنوع لم يستمر طويلا ثم رجعت النساء
الى ما كانت عليه من لبس العصائب القصيرة والسراقوش « ولم
يلتفتن الى تحجير السلطان عليهن في ذلك (٤١٥) » .

وكثيرا ما كانت هذه العصائب تطرز بالزخارف الجسيلة
وتزين بالذهب واللؤلؤ كما كان الحال بالنسبة لعصائب نساء
طبقة الممالك التي أفاض المؤرخون في الكلام عنها وفي الإشارة
اليها ويكفي أن نسجل ما وراء أولئك الكتاب بصدد عصايب
اتفاق التي « استهرت عند الأمراء وشنعت قائلتها ، فانه قام
بعملها ثلاثة ملوك : الصالح اسماعيل ، والكامل شعبان
والمظفر حاجي وتنافسوا فيها ، واعتنوا بجواهرها ، حتى بلغت
قيمتها زيادة على مائة ألف دينار مصرية (٤١٦) » .

(٤١٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٣٢ ؛
الجوهري ، انباء الهصر ، ورقة ١٥٤ ١ .

(٤١٦) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ : ٧٢٥ ؛ ج
٣ ، ص ٨٧٠ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٣٤٨ ؛
الشوكاني ، البدر الطالع ، ج ١ ، ص ١٨٧ ؛ ابن العماد ، تدرجات
الذهب ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

كذلك حرصت النساء على استعمال الشاش كنوع من،
أغطية الرأس ، وهو عصابة تلبسها المرأة بحيث يكون أولها عند
جبينها وآخرها عند ظهرها . ويكون شكلها العام مثل سم
الجمل ، فيبلغ طولها نحو ذراع وارتفاعها ربع ذراع (٤١٧) ،
وكثيرا ما كن يبالغن في زخرفتها بالذهب واللؤلؤ . وقد أثار
المؤرخ ابن تغرى بردى الى هذا الشاش بقوله : « وقد رأيت
أنا هذا الشاش المذكور وكان على صفة الحلى الذي ، تحلى
به العروس بل كان أكثر تعباً في تعديله (٤١٨) » .

ومن أغطية الرأس التى شاع استعمال النساء لها على عصر
سلاطين المماليك ، العمامة التى كانت بمثابة زى للرجال والنساء
على السواء بدليل ذلك المرسوم الذى أصدره السلطان الظاهر
بيبرس عام ٦٦٢/١٢٦٣ وأمر فيه بأن ينادى فى مصر والقاهرة
« بأن امرأة لا تتعمم بعمامة ولا تتزيا بزي الرجال » وهددت
كل من فعلت ذلك بعد مرور ثلاثة أيام من صدور هذا النداء ،

(٤١٧) المقربزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٥٣٤ ؛ العبسى ،
ناريح البدر ، ورفه ١٢٣ أ ؛ ابن قاضى شعبة ، الاعلام بتاريخ
الاسلام ، ورقة ١٠ أ .

(٤١٨) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٢ ، ورقة
٤٥ ب ، ١٤٦ .

بسلب كل ما عليها من كسوة وملابس^(٤١٩) . ولكن من الواضح أن هذا النداء لم يحترم طويلا شأنه في هذا شأن بقية النداءات الأخرى التي أصدرتها الدولة المملوكية . والتي هدف بها التحكم في أشكال وأنواع ملابس نساء العصر . اذ يعيب الفقيه ابن الحاج على نساء عصره في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي . استعمالهن للعصائم التي على هيئة سنم الهجين المزدوج^(٤٢٠) .

والى جانب هذه الأنواع المتعددة من أعطية الرأس النسائية ، شاع أيضا استخدام الشربوش وهو أشبه بالناج ، مثلث الشكل ، كان يجعل على رأس المرأة بغير عمامة^(٤٢١) . وقد أشار المقرئى الى سوق الشرايشين فقال : « وهذا السوق مما أحدث بعد الدولة الفاطمية . ويباع فيه الخلع التي

(٤١٩) ابن عبد الظاهر : الروض الراهر ، ج ٣ - ص ١٠٠٧ ؛ المقرئى ، السلوك - ج ٢ ، ص ٥٠٣ ؛
Sadeque, Baybars the frist, p. 90

(٤٢٠) ابن الحاج . المدخل ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

(٤٢١) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٩٩ ؛ السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٦١ ؛ ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١١ . ص ٣٥١ ؛ ابن حجر ، انباء الفهر ، ج ١ ، ورقة ١٨٦ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ١٤٥ ؛

Dozy, Vêtements, p. 220

يلبسها السلطان للأمراء والوزراء والفضاء وغيرهم ***
وعرف بالشرابشين نسبة الى الشرايش المذكورة . وقد بطل
الشربوش في الدولة الجركسية - أى في العصر المملوكى الثانى -
وحل محله الطواقى ذات الألوان الخضراء والحمراء والزرقاء
التي أقبل الرجال والنساء على ارتدائها على رؤسهم بغير عمامة .
وكانت ترتفع في بادىء الأمر نحو سدس ذراع ويبدو جزئها
العلوى مدورا مسطحا . بيد أنها لم تلبث أن تطورت بعض
الشيء على عهد السلطان فرج بن برقوق وأصبح ارتفاع عصاة
الطافية منها نحو ثلثي ذراع ، وأعلاها مدور مقبب ، وبولغ في
تبطينها بالورق والكثير فيما بين البطانة المباشرة للرأس والوجه
الظاهر للناس ، وجعل من أسفل العصاة المذكورة زيفا من فرو
القرض الأسود المعروف باسم القدنس في عرض نحو ثمن ذراع » .
وقد ذكر لنا المقرئى سبب اقبال نساء الممالك على هذه
الطواقى الجركسية فقال : « أنه نشأ في أهل الدولة محبة
الذكران . فقصده نساؤهم التشبه بالذكران ليستلن قلوب
رجالهن ، فاقتدى بفعلهن في ذلك عامة نساء البلد ، كما حاول
تبرير استعمال النساء لهذه الطواقى بما حدث بالناس من الفقر
وما نزل بهم من الفاقة في ذلك العصر الأخير مما اضطر النساء
الى ترك لبس الذهب والفضة والجواهر ولبس الحرير ، ولبسن
هذه الطواقى » ، غير أنه سرعان ما ناقض نفسه عندما أشار الى

مبالغة النساء في عملها من الذهب والحرير وتواصيهن على لبسها (٤٢٢) .

ويبدو أن هذا الأسراف من جانب النساء دفع أهل الدولة الى التدخل من جديد للحد من استعمال هذه الطواقي . فقد أشارت المصادر الى تحريم ناصر الدين بن شيل استعمال هذه الطواقي عقب توليه وظيفة محتسب القاهرة ، سنة ٨٣٠ / ١٤٢٧ (٤٢٣) . على أنه من الممكن التماس بعض العذر لعامة النساء في مثل التصرفات السابقة . فالمجتمع المصرى فى العصر المملوكى سار وفق النظام الذى نعرفه اليوم فى مجتمعنا الحديث، وهو أن كل طبقة فى المجتمع مولعة دائما ابدا بمحاكاة من تعلوها من الطبقات ، وبعبارة أخرى فإن المستحدثات التى نطلق عليها اسم « الموضات » تنتقل دائما من أعلى الى أسفل . وقد شهد المؤرخون أكثر من مرة بأن ما فعلته عامة النساء فى الملبس اقما كان من باب التشبه بما فعلته زوجات السلاطين ونساء الامراء ومن ذلك ما رواه المقرئى فى حوادث سنة ٧٥١ / ١٣٥٠ من تشبه نساء القاهرة بالخيراتين من نساء السلاطين وجواريهن ، كما حدثنا فى وقائع سنة ٧٩٣ / ١٣٩١ كيف أن نساء السلاطين

(٤٢٢) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ١٠٤ ، .

Mayer, Costume, p. 79

(٤٢٣)

وجواريهن أحدثن ثيابا طوالا تحسب أذيالها على الأرض وكيف
« فحسنى في هذا حتى تشبه عوام النساء في اللبس بنساء الملوك
والأعيان (٤٢٤) » .

على أية حال فنحن نجهل الوقت الذي استغرقه تحريم
ناصر الدين بن شبل لهذه الطواقي الجركسية ، لكن من المرجح
أنها قد استبدلت بنوع من الطراوير الطويلة . فقد أشار
الرحالة الألماني أرنولد فون هارف الذي زار مصر في أواخر
العصر المملوكي ، الى أن النساء كانت تضع شيئا طويلا فوق
رؤوسهن على هيئة القدح أو الكأس الكبير ملفوفا بقماش ثمين
وذو زخارف بديعة (٤٢٥) ، وان كان الرسم التوضيحي الذي
زود به هذا الرحالة مؤلفه يبدو خاليا من هذه الرسوم
والزخارف (٤٢٦) . وأغلب الظن أيضا استمرار استعمال النساء
لهذا النوع من أغطية الرأس الى ما بعد القضاء على النفوذ
المملوكي ، لأن الرحالة الفرنسي بيير بلون الذي زار مصر بعد
الفتح العثماني لها بعدة سنوات أشار أيضا الى استعمال النساء
لنوع من أغطية الرأس يشبه الى حد كبير ذلك النوع الذي

(٤٢٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٨١٠ ؛ ج ٣ ، ص ٧٥ .

Letts, Pilgrimage, p. 124 (٤٢٥)

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pl. VII. (٤٢٦)

سبق لأرنولد فور هارف أن أمدنا بأوصافه وسجله لنا في أحد رسوم رحلته الحافلة (٤٢٧) .

كذلك عرف نساء مصر على سلاطين المماليك البخناق (٤٢٨) وهو نوع من أغطية الرأس الصغيرة الحجم التي اشتد اقبال النساء عليه وكان يصنع من القماش الهرمزي (٤٢٩) . وقد حدثنا المقریزی عن سوق البخانقين بمدينة القاهرة فروى أنه « معمور الجانبين بالحوائيت المعدة لبيع الكوافي والطواقي التي تلبسها الصبيان والبنات » . كما أشار الى أنه كان بظاهر هذا السوق ، عدة حوائيت لبيع الطواقي وعملها (٤٣٠) .

وترد أيضا في المصادر المملوكية المعاصرة أسماء الحجب المختلفة التي كانت تضعها النساء فوق وجوههن ، وهي مناديل كانت تستعمل لاختفاء الوجه ، اذ لم يكن باستطاعة المرأة في تلك الفترة أن تطوف شوارع المدينة بغير حجاب ، الا اذا كانت من بين الجاريات المخصصات للخدمة في المنازل والقصور فقد

Belon, Observations, p. 103 ; Carré, Voyageurs, (٤٢٧)
I, p. 7 Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pl X/A.

Dozy, Vêtements, p 55 (٤٢٨)

Ashtor, Histoire des prix, p 351. (٤٢٩)

(٤٣٠) المقریزی ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

روى أن عمر بن الخطاب رأى جارية عليها قناع فضربها بالدرّة
وقال : « اتشبهين بالحرائر !! » (٤٣١) وقد كان يومئذ من
لباسهن .

وأهمها جميعا المقنعة التي عرفت أيضا باسم القناع (٤٣٢)
والتي كانت تصنع غالبا من قماش المسلمين وتثبت تحت ازار
المرأة بعد أن تلف بها وجهها تماما (٤٣٣) . والطريحة التي
كانت توضع على الرأس وتسدل على الوجه فتخفيه
عن أعين الفضوليين من الرجال (٤٣٤) . ويفهم من كتابات
أحد المعاصرين أن هذين النوعين من الحجب قد استجدا على
عصر السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون وأن شئهما
كان يبلغ العشرة آلاف دينار وربما دون ذلك (٤٣٥) . وروى آخر أن

(٤٣١) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٤٣٢) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٣٣ ، حاشية

(١) ؛ ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ١٤٥ ؛

Ashtor, Histoire des prix, p. 172 ; Serjeant, Islamic textiles,

AI, X, p. 76 ; XI-XII, pp 105, 114, 117 ; XV-XVI, p 78

Dozy, Vêtements, p. 376.

(٤٣٣)

Dozy, Vêtements, p. 257 ; Serjeant, Islamic

(٤٣٤)

textiles, AI, XI-XII, p. 142 ; XIII-XIV, p. 103 ; Ashtor, L'Evolution
des prix, JESHO, IV, p 41.

(٤٣٥) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٣٦ ؛ ابن نغرى .

بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٧٦ .

الأمير تنكر نائب الشام قدم لابنته زوجة السلطان المذكور
مقنعة وطريحة بسبعة آلاف دينار (٤٣٦) . الأمر الذي يدل على
أن هذا النوع من الحجب كان قاصرا على نساء الطبقة الحاكمة
ونعنى بها طبقة الممالك .

ويحدثنا أحد الرحالة الأجانب عن استخدام نساء مصر
الملوكية لنوعين آخرين من الحجب ، الأول عبارة عن منديل
أبيض وأسود يطلق عليه عادة اسم البرقع وكان يغطي الوجه
الى ما تحت العينين (٤٣٧) وقد شاع استخدامه بين عامة النساء
ومن ثم فقد حرص فناني عصر الممالك على اثباته على منتجاتهم
الفنية التي احتوت على بعض رسوم النساء مثل تلك الرسوم
التي تزين مخطوطة الترياق المحفوظة بالمكتبة الأهلية بفينا (٤٣٨) ،
والتي تزين مخطوطة دعوة الأطباء لابن بطالان (٤٣٩) . كذلك

(٤٣٦) المقرئى ، ج ٢ ، ص ٤٣٣ ؛ ابن تغرى بردى ،
المنهل الصافي ، ج ٣ ، ورقة ١٩٣ ا .

(٤٣٧) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٦٨ ؛
المقرئى ، السلوك ؛ ج ٢ ، ص ٥٢٩ ؛ ابن ظهيرة ، الفضائل
الباهرة ، ورقة ٨٤ ب ؛

Mayer Costume, p. 73.

(٤٣٨) بشر فارس ، كتاب الترياق ، لوحة ١٢ .

(٤٣٩) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pl. XII/A.

يمكن مشاهدة البرقع في إحدى لوحات الرسام الايطالى
بلينى^(٤٤٠) التى سبق لنا الاشارة اليها .

أما النوع الثانى فهو أشبه بشبكة سوداء كانت تغطى
الوجه كله^(٤٤١) وقد اقتصر استعمالها على نساء الطبقة الراقية
وعلى نساء الأثرياء ، وهى تبدو بوضوح فى الرسوم النسائية
التى تركها لنا الرحالة الايطالى أرنولد فون هارف فى سجل
رحلاته ، وفى إحدى روائع انفنان الايطالى كاريتشيو المحفوظة
بمتحف جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية^(٤٤٢) .

ومن الحجب التى شاعت بين عامة النساء نذكر
النقاب^(٤٤٣) . وهو عبارة عن قناع أسود اللون أكتفى فيه
بعمل فتحتان للعينين^(٤٤٤) . ويفهم من كتب الرحالة الأجانب
المعاصرين أن استعمال هذا النقاب قد امتد الى نساء بدو مصر
وفى هذا خير دليل على شعبيته وتفسير لعدم ظهوره على

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pl. VIII/A ({{ { .)

Mayer, Costume, p. 73 ; Arnold von Harff, ({{ { ١)
Pilgerfahrt, p. 106.

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pl. VII, IX ({{ { ٢)

Ashtor, Histoire des prix, p. 325. ({{ { ٣)

Dozy, Vêtements, p. 424 ; Mayer, Costume, p. 73 ({{ { ٤)

المنتجات الفنية المتعلقة بعصر الممالك التي احتوت على بعض
الرسوم النسائية .

نتقل الآن الى الحديث عن أحذية النساء في العصر
المملوكى التى يفهم من المصادر المعاصرة أنها كانت تطابق في
أشكالها وخفتها وفخامتها أحذية الرجال المعروفة باسم خف ،
والتي كانت تصنع عادة من جلد ملون^(٤٤٥) ويغالى في زخرفتها
وتزيينها حتى أطلق عليها بعض مؤرخى تلك الفترة اسم
« الأخفاف المشمة^(٤٤٦) » . ولعله من المناسب ونحن بصدد
الكلام عن أخفاف النساء أن نذكر أن المرأة الذمية كثيرا ما ألزمت
على عصر الممالك بأن تلبس خفين احدهما أسود والآخر
أبيض تميزا لها عن أختها المسلمة^(٤٤٧) .

وكان يلبس فوق هذه الأخفاف أحذية قصيرة تعرف باسم
« سراموزة » وهى تعنى النعل وأصلها فارسي معناه رأس الخف

Arnold von Harff, Pilgerfahrt, p. 106.

(٤٤٥)

(٤٤٦) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ ؛ السلوك ،
ج ٢ ، ص ٨١٠ - ٨١١ ؛ ابن اناس ، بدائع الزهور ، ج ١ ،
ص ١٩٣ .

(٤٤٧) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٩٢٣ ؛ ابن كير ،
البداهة والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٥٠ ؛ القلقشندى ، صبح
الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٨٤ .

وقد وصفها لنا شرف بن أسد المصرى أحد أدباء عصر المماليك وصفا طريفا فقال : « وأسألك أيها المولى أن تتدفنى بسرموزه أنعم من الموزة ، وأقوى من الصوان ، وأطول عمرا من الزمان ... لا يتغير وشيها ... جلدها من خالص جلود الماعز ... ونعلها من جلد الأفيلة الخمير ، لا الفطير ! » (٤٤٨) وهى كانت تخلع عند دخول المنزل ولا تلبس الا خارجه .

وعرف هذا العصر أنواعا أخرى من الأخفاف التى كانت تلبس أيضا فى الشوارع منها « المداس » (٤٤٩) الذى أشارت اليه المصادر المملوكية من حين لآخر ، خاصة عندما كان يستخدم بمثابة سلاح عندما ترغب بعض سوقة النساء فى التعبير عن غضبها ضد احدى الضحايا من الرجال أو من النساء ممن يقعوا بين أيديها (٤٥٠) ، والسقمان وهو خف ثان يلبس فوق خف آخر . وكان يصنع من جلد بلغارى أسود ويلبسه النساء والجنود والأمراء وكذلك السلاطين (٤٥١) ، والأوطية المرصعة

(٤٤٨) ابن تساكر ، فوات الوفيات ج ١ ، ص ٣٨٣ ؛
المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٠٥ ؛ أقبغا الخاصكى ، التحفة ،
ورقة ٨٢ ب .
(٤٤٩) Dozy, Vêtements, p. 186.

(٤٥٠) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٠٨ ؛ ابن تغرى
بردى ، النجوم ؛ ج ٨ ، ص ٤٦ .
(٤٥١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٣٣١ ؛
المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

التي استجدها نساء طبقة المماليك على عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي (٤٥٢) .

وكانت نساء عصر المماليك تحصلن على جميع مايلزمهن من الأحذية والأخفاف من سوق الأخفافين الذي شيده الأمير يونس النوروزي دؤادار السلطان الظاهر برقوق بعد سنة ١٣٧٨/٧٨٠ ونقل اليه جميع الأخفافين وبياعى أخفافه النساء (٤٥٣) .

بقى أن نشير الى « القباقيب » الخشبية التي كانت تمتاز بقوائمها المرتفعة التي تبلغ في بعض الأحيان مايقرب من التسع بوصات (٤٥٤) ، والتي كثيرا ما كانت مرصعة بالذهب والأحجار الكريمة أو بالصدف أو العاج أو الأبنوس وقد تكون أيضا مزينة برسوم اللاكيه (٤٥٥) . وكانت النساء تستخدم هذه

(٤٥٢) المقریزی ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٣٦ .

(٤٥٣) المقریزی ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .

(٤٥٤) Lane, The Modern Egyptians, p. 46 ; Dozy, Vêtements, p. 347

(٤٥٥) المقریزی ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٨١٤ ؛ ج ٣ ، ص ٢٠٣ ؛ ابن تغرى بردی ، النجوم ، ج ٥ ، ص ١٠٤ ؛ أحمد ممدوح حمدي ، معدات التجميل ، ص ٥٣ .

« القباقيب » عند الاستحمام وفي بعض الأحيان في المنازل
كوسيلة للكشف عن مفاتن أقدامهن التي كثيرا ما كانت تنقش
بأشكال بديعة من الحناء (٤٥٦) .

والواقع أن هذه القباقيب قد لعبت دورا محزنا في تاريخ
نساء عصر المماليك ، عندما ضربت شجر الدر ، أولى سلاطين
هذه الدولة بالقباقيب حتى الموت على أيدي جاريات زوجها
عز الدين أيبك الذي كان قد سبق لشجر الدر أن اغتالته أيضا
بالقباقيب (٤٥٧) .

ولعله من المناسب أن نختم دراستنا هذه عن المرأة في
مصر المملوكية بالاشارة الى بعض أسعار هذه الملابس النسائية
حتى يمكننا التعرف على مدى التكاليف الباهظة التي ألزمت
بها نساء هذا العصر أزواجهن وآبائهن وغيرهم من المستولين
عنهن . إذ أنه من الخطأ البين الاعتقاد بأن تلك الملابس كانت
بسيطة التكاليف زهيدة الأسعار فقد احتفظت لنا المصادر

Lane, The Modern Egyptians, p. 64 ; Dozy, (٤٥٦)
Vêtements, p. 348.

(٤٥٧) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٩٢ ؛
الجزري ، حوادث الزمان ، ورقة ١٣٤ ب ؛

Mayer, Costume, p. 73.

Devonshire, L'Egypte musulmane, p 74.

التاريخية ببعض التفاصيل القليلة يصدد الأثمان الباهظة التي
كانت تدفع في هذه الملابس . اذ روى المقرئى في أحداث سنة
١٣٤١/٧٤٢ أن سراويل زوجة الأمير أقبغا من عبد الواحد قد
بيعت بمائتى ألف درهم فضة أى ما يعادل نحو عشرة آلاف
دينار ، كما بيع لها قبقاب وخف نسائى وسرموجة بخمسة
وسبعين ألف درهم^(٤٥٨) . ويحكى أيضا أن مصروف قميص
المرأة المعروف باسم البهظة بلغ عام ٧٥١/١٣٥٠ ألف درهم فما
فوقها ، وأن خف المرأة وسرموزتها خمسمائة درهم^(٤٥٩) . بل
لعل أكثر الأمثلة التي تبعث على الدهشة وتدل على مدى التبذير في
شراء ملابس النساء هي القصة التي أوردها لنا المؤرخ المملوكى
ابن تغرى بردى بشأن خوند جلبان زوجة السلطان الأشرف
برسبای التي أنفقت مبلغ ثلاثين ألف دينار على ثوب واحد ،
صنع خصيصا لها من أجل حفل ختان ابنها الملك العزيز يوسف
ولى العهد^(٤٦٠) . ويقص علينا المؤرخ ابن اياس أيضا ان
تكاليف أحد أقمصه خوند زينب زوجة السلطان اينال قد فاقت

(٤٥٨) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٦٤ .

(٤٥٩) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ ؛ السلوك ،

ج ٢ ، ص ٨١٠ - ٨١١ .

(٤٦٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٦ ، ص ٧٣٩ .

في بعض الأحيان الاثنتى عشر ألف درهما (٤٦١) . كما يفهم من كتابات بعض المعاصرين أن أثمان الطرحة والمقنعة كانت تتفاوت بين الخمسة والعشرة آلاف دينار (٤٦٢) ، أما أغطية الرأس فقد وصلت في بعض الأحيان الى المائة ألف دينار (٤٦٣) . كذلك نسمع عن ثلاثة قباقيب نسائية ، فيها اثنان مرصعان بالجواهر ، بلغت قيمتها في غضون القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى ما يقرب من مائة وخمسون ألف درهم أى ما يساوى ثمانية ألف مثقال من الذهب (٤٦٤) .

(٤٦١) محمد مصطفى ، صفحات لم تنشر ، ص ٥١ .

(٤٦٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ص ٥٣٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٧٦ ؛ المنهل الصافى ، ج ٣ ، ورقة ١٩٣ أ .

(٤٦٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٢٥ ؛ الشوكانى ، البدر الطالع ، ج ١ ، ص ١٨٧ ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ١٥٢ .

(٤٦٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ ؛ ابن حجر ، انباء الفمر ، ج ١ ، ص ٣٤ ، حاشية (٨) .

ثبت المصادر والمراجع

١ - مصادر عربية مخطوطة

- ابن اسباط **الفري** ، تاريخ مصر - مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس
تحت رقم ١٨٢١ .
- ابن بهادر ، فتوح النصر في تاريخ مصر - مخطوط بدار الكتب
المصرية تحت رقم ١٣٢٩ .
- ابن تغرى **بردى** ، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافى - مخطوط
بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٠٦٨ - ٢٠٧٣ .
- ابن **الجوزى** ، جواهر السلوك في الخلفاء والملوك - مخطوط
بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٦٧٣٩ .
- ابن **حبيب** ، درة الأسلاك في دولة الاتراك - مخطوط بالمكتبة
الأهلية بباريس تحت رقم ١٧١٩
- ابن **حجر العسقلانى** ، ذيل الدرر الكامنة - مخطوط بدار الكتب
المصرية تحت رقم ٦٤٩ تاريخ تيمور .
- ابن **دقماق** ، الجواهر الثمين في سير الخلفاء والسلاطين - مخطوط
بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٥٧٦٢ .
- ابن **دنيال الموصلى** ، طيف الخيال في معرفة خيال الظل - مخطوط
بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٦ أدب .
- ابن **شاكر الكتبى** ، عيون التواريخ - مخطوط بدار الكتب المصرية
تحت رقم ١٣٧٦ تاريخ .
- ابن **الشحنة** ، الذيل من كتاب المنهل في التواريخ - مخطوط برلين
تحت رقم ٤١٢٥ .
- ابن **الشحنة** ، روض المناظر في أخبار الأوائل والأواخر - مخطوط
بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٥٣٨ .

- ابن الشحنة ، لسان الحكام فى معرفة الاحكام - مخطوط بالمكتبة
الاهلية بباريس تحت رقم ٩٣٥ .
- ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة - مخطوط
بالمكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ١٧٦٧ .
- ابن قاضى شهبه ، الاعلام بتاريخ الاسلام - مخطوط باكسفورد
تحت رقم ١٤٣ .
- اقبفا الخاصكى ، التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطوط القاهرة -
مخطوط بالمكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ٢٢٦٥ .
- الاکرمى ، البسيط فى السروط - مخطوط بالمكتبة الاهلية بباريس
تحت رقم ٩٣٣ .
- الباعونى ، أرجوزة فى الخلفاء والسلاطين - مخطوط بالمتحف
البريطانى تحت رقم ٢/١٥٥ .
- الباعونى ، اللوحة الاشرفية والبهجة السنية - مخطوط بالمكتبة
الاهلية بباريس تحت رقم ١٦١٥ .
- البرزالى ، المقتفى لتاريخ الشيخ شهاب الدين ابو شامة - مخطوط
بمكتبة أحمد الثالث باسطنبول تحت رقم ٢٩٥١ .
- البنبى ، العقود الدرة فى الامراء المصرية - مخطوط بالمكتبة
الاهلية بباريس تحت رقم ١٦٠٨ .
- بيبرس النوادر ، التحفة الملوكية فى الدولة التركية - مخطوط
مصور بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٢٩ .
- بيبرس النوادر ، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة - مخطوط بالمتحف
البريطانى تحت رقم ٢٣٣٢٥ .
- التروكمانى ، كتاب اللمع فى الحوادث والبدع - مخطوط ببرلين
تحت رقم ١٦٨١ .

**التيجاني ، تحفة العروس ومتعة النفوس - مخطوط بالمكتبة
الأهلية بباريس تحت رقم ٥٨٨٧ .**

**الجرواني ، الكوكب المشرق فيما يحتاج اليه الموق - مخطوط
بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٠٤٧ .**

**الجزري ، حوادث الزمان - مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس
تحت رقم ٦٧٣٩ .**

**الجعفري ، بهجة السالك والسلوك في تاريخ الخلفاء والسلاطين
والملوك - مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم
١٦٠٧ .**

**الجعفري ، الجوهر السمين في أخبار الخلفاء والسلاطين ، مخطوط
بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٦١٧ .**

**الجوهري ، أنباء الهصر في أبناء العصر - مخطوط بالمكتبة الأهلية
بباريس تحت رقم ١٧٩١ .**

**الخالدي ، ديوان الانشاء - مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت
رقم ٤٤٣٩ .**

**الذهبي ، تاريخ الاسلام وطبقات مشاهير الاعلام - مخطوط
بمكتبة آياصوقيا ناسطنبول تحت رقم ٣٠١٤ .**

**الذهبي ، العبر في أخبار من غبر - مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس
تحت رقم ٥٨١٩ .**

**الذهبي ، معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار - مخطوط
بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٠٨٤ .**

**السخاوي (شمس الدين) ، الدرة المضيئة في المآثر الاشرفية -
مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٦١٥ .**

**السخاوي (علي بن احمد) ، تاريخ مصر - مخطوط مصور بمعهد
المخطوطات بباريس تحت رقم ١٢٩ .**

- السقاعي ، تالى كتاب وفيات الاعيان — مخطوط بالمكتبة الاهلية
بباريس تحت رقم ٢٠٦١ .
- السيوطى ، اكام العقيان فى احكام الخصيان — مخطوط بالمكتبة
الاهلية بباريس تحت رقم ٢٨٠٠ .
- السيوطى ، بلبل الروضة — مخطوط بدار الكتب المصرية تحت
رقم ٢٠ .
- السيوطى ، منتقى ينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع —
مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢١ .
- الشجاعى ، تاريخ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وبنيه —
مخطوط ببرلين تحت رقم ٩٨٣٣ .
- الصديقى ، الكواكب السائرة فى اخبار مصر والقاهرة — مخطوط
بالمكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ١٨٥٢ .
- الصديقى ، قطف الازهار من الخطط والآثار — مخطوط بالمكتبة
الاهلية بباريس تحت رقم ١٧٦٥ .
- الصفدى ، اعيان العصر واعوان النصر — مخطوط بمكتبة طوبقاي
سراى باسطنبول تحت رقم ٢١٤ ، ٢١٦ .
- الصفدى ، الوافى بالوفيات — مخطوط مصور بمعهد المخطوطات
الصربية تحت رقم ٥٦٥ .
- العمرى ، مسالك الابصار فى ممالك الامصار — مخطوط بدار
الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٩ معرفة عامة .
- العينى ، تاريخ البلر فى اوصاف العصر — مخطوط بالمتحف
البريطانى تحت رقم ٢٢٣٦٠ .
- العينى ، الشماريخ فى التواريخ — مخطوط باكسفورد تحت
رقم ٦٠ .

العيني ، عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان - مخطوط باسطنبول
تحت رقم ٢٣٩١ - ٢٣٩٤ .

القيصري ، النور اللائح والدر الصادح في اصطفاء مولانا الملك
الصالح - مخطوط بالمكتبة الاهلية بباريس تحت
رقم ١٧٠٨ .

مرعى بن يوسف ، نزهة النساظرين في من ولى مصر من الخلفاء
والسلاطين - مخطوط بالمكتبة الاهلية بباريس تحت
رقم ١٨٢٧ .

المقديسى ، بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاه الامور
وسائر الرعية - مخطوط بالمكتبة الاهلية بباريس تحت
رقم ٢٤٥١ .

المقرئى ، المقفى - مخطوط بالمكتبة الاهلية بباريس تحت رقم
٢١٤٤ ، وبلیدن تحت رقم ١٣٦٦ .

• • • ، نزهة الانسان في ذكر تاريخ الملوك والاعيان - مخطوط
بالمكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ١٧٦٩ .

النويرى ، نهاية الارب في فنون الادب - مخطوط بالمكتبة الاهلية
بباريس تحت رقم ١٥٧٣ ، ١٥٧٧ - ١٥٧٩ ، ١٥٨٧
- ١٥٨٨ .

اليويينى ، ذيل مرآة الزمان في تاريخ الاعيان - مخطوط بمكتبة
احمد الثالث باسطنبول تحت رقم ٢٩٠٧ .

٢ - مصادر عربية منشورة

- ابن الاخوة ، معالم القربة فى احكام الحسية ، لندن ١٩٣٨ .
- ابن الاكفانى ، نخب الدخائر فى أخبار الجواهر ، القاهرة ١٩٣٩ .
- ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور - طبعة بول كالة .
ومحمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦٣ .
- ابن اياس ، كتاب تاريخ مصر المشهور ببداائع الزهور فى وقائع
الدهور ، بولاق ١٨٩٣ - ١٨٩٥ .
- ابن بسام ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، بغداد ١٩٦٨ .
- ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، باريس ١٩٦٨ .
- ابن تفرى بردى ، مننجات من حوادث الدهور فى مدى الأيام
والشهور ، كاليفورنيا ١٩٣٠ - ١٩٤٢ .
- ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة
دار الكتب المصرية ١٩٣٠ - ١٩٧٢ ، وطبعة كاليفورنيا
١٩٠٩ - ١٩٣٦ .
- ابن تفرى بردى ، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى القاهرة ١٩٥٦
- ابن تفرى بردى ، مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة ،
كمبردج ١٧٩٢ .
- ابن تيمية ، مجموعة فتاوى ، القاهرة ١٣٢٦ هـ .
- ابن الجيعان ، التحفة السنية باسماء البلاد المصرية ، القاهرة
١٨٩٨ .
- ابن الحاج البدرى ، المدخل ، القاهرة ١٩٢٩ .
- ابن حجر العسقلانى ، انباء الغمر ، القاهرة ١٩٦٩ - ١٩٧٢ .
- ابن الوردى ، تنمة المختصر فى أخبار البشر ، القاهرة ١٨٧٠ -
١٨٧١ .

- أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، القاهرة ١٩٠٧ - ١٩٠٨ .
- أحمد عبد الرازق ، دراسات في المصادر المملوكية المبكرة ، القاهرة ١٩٧٤ .
- أحمد عبد الرازق ، الجيش المصرى فى العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٩٨ .
- أحمد عبد الرازق ، تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٣ .
- أحمد عبد الرازق ، شرطة القاهرة زمن سلاطية المماليك ، القاهرة ١٩٨٢ .
- أحمد ممدوح حملى ، معدات التجميل فى متحف الفن الاسلامى ، القاهرة ١٩٥٩ .
- الإدفوى ، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، القاهرة ١٩٦٦ .
- أنور زقلمة ، المماليك فى مصر ، القاهرة ١٩٣٠ .
- جمال محرز ، من التصوير الإسلامى فى القرن ٨ هـ / ١٤ م - كتاب الحيوان للجاحظ - مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة المجلد ١٤ (١٩٥٢) .
- جمال محرز ، من التصوير المملوكى - نسخة من كتاب دعوة الأطباء لابن بطلان - مجلة معهد الدراسات العربية - القاهرة ١٩٦١ .
- حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية فى الوثائق والتاريخ ، القاهرة ١٩٦٠ .
- حسن الباشا ، العنون والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٦٧ .
- حكيم أمين عبد السيد ، قيام دولة المماليك الثانية ، القاهرة ١٩٦٧ .
- الدوادارى ، كنز الدرر أو الدرر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، القاهرة ١٩٦٠ .
- الذهبي ، كتاب دول الإسلام ، حيدر آباد ١٩٤٥ - ١٩٤٦

**ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة ، حيدر
آباد ١٩٢٩ - ١٩٣٢ .**

ابن حجر العسقلانى ، رفع الاصر عن قضاة مصر ، القاهرة ١٩٥٧
**ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبدأ والخبر فى أيام العرب
والبربر ، القاهرة ١٨٦٧ - ١٨٦٨ .**

ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ، القاهرة ١٨٩٣ .
ابن زنبيل ، آخر المماليك ، القاهرة ١٩٦٢ .

ابن الزيات ، الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة ، بولاق ١٩٠٧ .
ابن شاکر الكتبى ، فوات الوفيات ، القاهرة ١٩٥١ .

ابن شاهين الظاهرى ، زبده كشف الممالك ، بارس ١٨٩٤ .
ابن طولون ، مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، القاهرة ١٩٦٤ .
**ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، رسالة
دكتوراه لم تطبع محفوظة بمكتبة مدرسة الدراسات
الشرقية والافريقية بلندن .**

**ابن عبد الظاهر ، تشریف الايام والعصور بسيرة الملك المنصور ،
القاهرة ١٩٦١ .**

ابن عبد الظاهر ، السلطان الملك الاشرف حليل ، القاهرة ١٩٠٢ .
**ابن عيدون ، رسالة جامعة لفنون نافعة فى سراء الرقيق وطلب
العبيد ، القاهرة ١٩٥٤ .**

**ابن العماد ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة ١٩١٢
- ١٩٣٣ .**

ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، بيروت ١٩٣٦ - ١٩٤٢ .
ابن كثير ، البداية والنهاية فى التاريخ ، القاهرة ١٩٣٢ - ١٩٣٩ .

- الذهبي ، سير الاعلام والنبلاء ، القاهرة ١٩٥٧ - ١٩٦٢ .
- زكى مبارك ، التصوف الاسلامى فى الادب والأخلاق ، القاهرة ١٩٣٨ .
- زينب فواز ، الدر المنور فى ربان الحدود ، بولاق ١٣١٢ هـ .
- السبكى ، كتاب معبد النعم ومبيد النقم ، لندن ١٩٠٨ .
- السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ١٣٢٥ - ١٣٥٥ هـ .
- السخاوى ، التبر المسبوك فى ديل السلوك ، بولاق ١٨٩٦ .
- سعاد ماهر ، عفود الرواج على المنسوجات الأتربة ، القاهرة ١٩٦٠ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المالىكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٢ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ .
- سهير القلماوى ، ألف ليلة وليلة ، القاهرة ١٩٦٠ .
- السيد الباز العرينى ، المماليك ، بيروت ١٩٦٧ .
- سيرة الظاهر بيبرس ، القاهرة ١٩٢٦ .
- السيوطى ، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ١٨٨١ - ١٨٨٢ .
- الشربينى ، هز القحوف فى شرح قصيده أبى شادوف ، بولاق ١٨٩٠ .
- الشعرانى ، لطائف المنن والأخلاق ، القاهرة ١٣١١ هـ .

الشهراني ، لواقع الأنوار القدسية في بيان العهد الحمدي ،
القاهرة ١٣١١ هـ .

الشوكاني ، البدر الطالع بمحاسن من بعد ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .
الصيرفي ، نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ، القاهرة
١٩٧٠ - ١٩٧١ .

طاهر الطناحي ، ألف ليلة وليلة ، القاهرة ١٩٥٨ .

عباس العقاد ، المرأة في القرآن ، القاهرة (بدون تاريخ) .

عبد الحميد يونس ، خيال الظل ، القاهرة ١٩٦٥ .

عبد الله بن عبد الظاهر ، اللطاف الخفية في السيرة الشريفة
السلطانية الملكية الاشرفية ، ليزج ١٩٠٢ .

عبد اللطيف ابراهيم ، دراسات تاريخية وأثرية في ورائق من عصر
السلطان الغوري ، رسالة دكتوراه محفوظة بمكتبة
جامعة القاهرة .

عبد المنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ،
القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٦٧ .

علي ابراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك البحرية ، القاهرة
١٩٤٨ .

عمر رضا كحالة ، أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام ، دمشق
١٩٥٩ .

العيني ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر ، القاهرة
١٩٦٢ .

العيني ، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، القاهرة ١٩٦٨ .

القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، القاهرة ١٩١٤ -
١٩٢٨ .

- كمال سامح ، العمارة الاسلامية في مصر ، القاهرة ١٩٧٠ .
- الكندى ، كتاب الولاة والقضاة ، ليدن ١٩١٢ .
- محمد جمال الدين سرور ، دولة الطاهر بيبرس ، القاهرة ١٩٦٠ .
- محمد جمال الدين سرور ، دولة ابنى قلاوون في مصر ، القاهرة ١٩٤٧ .
- محمد مصطفى ، صفحات لم ننس من بدائع الزهور لابن اياس ، القاهرة ١٩٥١ .
- محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والادبى ، القاهرة ١٩٤٦ - ١٩٦٢ .
- مفضل بن ابي الفضائل ، كتاب النهج السديد والدر العريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، باريس ١٩١١ .
- المقرئى ، السلوك في معرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٧٢ .
- المقرئى ، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠ هـ .
- اليونينى ، ذيل مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، حيدر آباد ١٩٥٤ - ١٩٦١ .

٢ - المصادر الأجنبية

- **Ar-Râziq (Ahmad)**, Un document concernant le mariage des esclaves au temps des Mamlûks., JESHO. III/3 (1970), pp. 309 — 314.
- **Ar-Râziq**, Les Peignes égyptiens dans l'art de l'islam, Syria, XLIX (1972).
- **Ar-Râziq**, Trois fondations féminines dans l'Egypte mamlouke, REI, XLI/I (1973).
- ar (Emile)**, La valeur historique de l'ouvrage biographique intitulé al-Manhal as-Sâfî, Mélanges Hartwig Derenbourg. Paris : Ernest Leroux (1909), pp. 245 — 254.
- ator (Eliyahu)**, Le Coût de la vie dans l'Egypte médiévale, JESHO, III (1960), pp. 56 — 57.
- ator**, L'Evolution des prix dans le Proche-Orient à la basse-époque, JESHO, IV (1961), pp. 15 — 46.
- ator**, Histoire des prix et des salaires dans l'Orient médiéval, Paris, 1969.
- ator**, Some unpublished sources for the Bahrî Period., Studies in Islamic History and Civilization, éd. Uriel Heyd. (Scripta Hiërosolymitana, IX). Jerusalem : Hebrew University, 1961, pp. 11 — 30
- don (David)**, The Circassians in the Mamlûk Kingdom, JAOS, LXIX. — 1949 — pp. 135 — 147

Ayalon, L'Esclavage du Mamelouk. (Oriental Notes and Studies, no. 1). Jerusalem · Israël Oriental Society, 1951.

Ayalon, Studies on the structure of the Mamlûks army, BSOAS, XV/2 (1953) pp. 203 — 228; XV/3 (1953), pp. 448 — 476; XVI/I (1954), pp. 57 — 90.

Balog (Paul), The Coinage of the Mamlûk sultans of Egypt and Syria, New — York, 1964.

Balog, History of the dirham in Egypt from the Fatimid conquest, to the collapse of the Mamlûk Empire, RN III (1961). pp. 109 — 146.

Belin (M.), Fetoua relatif à la condition des Zimmis, et particulièrement des chrétiens en pays musulmans depuis l'établissement de l'islamisme, jusqu'au milieu du 8e siècle de l'hégire, JA, XVIII (1851); XIX (1852).

Belon (Pierre), Les Observations de plusieurs singularités et choses mémorables trouvées en Grèce, Asie, Judée, Egypte, Arabie, et autres pays étrangers, Paris, 1838.

Berchem (Max Van) Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum, I, Egypte, MIFAO, t. 19, Le Caire, 1894 — 1903.

Berchem, Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum, II, Syrie, MIFAO, t. 43 — 44, Le Caire, 1922 — 1927.

- Brocklemann (Carl)**, Geschichte des arabischen Litteratur, t. I — II, et 3 supplements éd. Leiden: E. J. Brill, 1945 — 1949.
- Cahen (Claude)**, Les Chroniques arabes concernant la Syrie, l'Egypte, et la Mésopotamie de la conquête arabe à la conquête ottomane dans les bibliothèques d'Istanbul, REI, IV (1936), pp. 333 — 362.
- The Cambridge history of Islam**, t. I — II éd. P.M. Holt Ann K.S. Lambton et Bernard Lewis, Cambridge, 1970.
- Carré (Jean-Marie)**, Voyageurs et écrivains Français en Egypte, I — II, Le Caire, 1956.
- Chastel (André)**, Italie renaissance méridionale, 1460 — 1500, s. d.
- Darrâg (Ahmad)**, L'Egypte sous la règne de Barsbây, Damas, 1961.
- Devonshire (R.L.)** L'Egypte musulmane, Paris, 1926.
- Djalâl (M.)**, Essai d'observations sur les rites funéraires en Egypte actuelle relevées dans certaines régions campagnardes. REI (1937), pp. 131 — 296.
- Dopp (H.P.)**, Le Caire vu par les occidentaux du Moyen âge, XXIII (1950); XXIV (1951); XXVI (1953).
- Dopp**, Traité d'Emmanuel Piloti sur le passage en Terre Sainte (1420), Paris 1958.

Dozy, Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes, Amsterdam, 1845.

Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, t. I — II, Paris, 1966.

Encyclopédie de l'Islam Id. et 2e éd. (jusqu'à présent ont paru : t. I — II).

Ernst (Hans), Die mamlukischen sultansurkunden des Sinai — Klosters. Wiesbaden : Otto Harrassowitz, 1960.

Fabri (F.), Fratr̄is felicis Fabri Evagatorium in Terram Sanctam, Arabiae et Aegypti peregrinationes, éd. C.D. Hassler, t. I — III, Stuttgart, 1843 — 1849.

Fahmy (Mansour), La condition de la femme dans la tradition et l'Evolution de l'islamisme, Paris, 1913.

Farès (Bishr), Le Livre de la thériaque, Le Caire, 1953.

La femme musulmane, ses droits et ses devoirs, Paris, s.d.

Fischel (Walter J.), Ascencus Barcoch, Arabica, VI (1959), pp. 57 — 74, 152 — 172.

Frescobaldi (L.), — **Sigoli (S.)** : Viaggi in Terrasanta, a cura di C. Angelini, Firenze, 1944.
Visit to the holy places of Egypt. Sinai, Palestine and Syria in 1384 by Fres-

cobaldi, Gucci et Sigoli, translated from the Italian by the Bellorini. E. Hoade, Jerusalem, 1945.

Gaudrefroy-Demombynes (M.) La Syrie à l'époque des mamelouks, d'après les auteurs arabes, Paris, 1923.

Gérard de Nerval, Voyage en Orient, t. I, Paris 1964.

Goitein, A Mediterranean Society, t. I, Berkeley and Los Angeles. 1967

Goitein, Sprichwörter und Redensarten aus Zentral — Jemen, Leipzig, 1934.

Goitein, Slaves and slavegirls in the Cairo geniza records, Arabica IX (1962).

Gottheil — Worrel, Fragments from the Cairo Genizah in the Freer Collection, New — York, 1927.

Haarmann (Ulrich), Quellenstudien zur frühen Mamlukenzeit, Freiburg 1. Br.; D. Robischon, 1969.

Harff (Ritter Arnolds von Coln), Die Pilgerfahrt des durch Italien, Syrien, Aegyptien, Arabien, Aethiopien, Nubien, Palastina, die Türkei; Frankreich und Spanien, Coln, 1860.

Meyd (W.) Histoire du commerce du Levant au Moyen Age, éd. française t. I — II, Leipzig, 1923.

Hautecœur et Wiet, les Mosquées du Caire, Paris, 1932.

Jomier (J.) Le Mahmal et la Caravane égyptienne des pèlerins de la Mecque, XIIIe — XXe siècles, Le Caire, 1953.

Kahle (Paul), The Arabic shadow play in Egypt, JRAS. (1940), pp. 21 — 24.

Kahle, A Gypsy woman in Egypt in the thirteenth century A.D. Journal of the Gypsy Lore society, Edinburg, XXIX (1950) pp. 11 — 15.

Labib (Subhi), The Problem of the bid'a in the light of an arabic manuscript of the 14th. Century, JESHO, VII (1964), pp. 191 — 196.

Lane (Edward), The Manners and customs of the modern egyptians, London, 1966.

Lane-Poole (Stanley), Cairo, sketches of its history monuments and social life, London, 1892.

Lane-Poole, A History of Egypt in the middle ages, London, 1901.

Lane-Poole, Social life in Egypt, London, 1884.

Laoust (Henri), Les gouverneurs de Damas sous les Mamlouks et les premiers Ottomans (658 — 1156) (1260 — 1744), Traduction des Annales d'Ibn Tûlûn et d'Ibn Gum'a, Damas, 1952.

- Lapidus (Ira M.)**, Muslim cities in the later Middle Ages, Cambridge, 1967.
- Larrivaz (F.)**, Les saintes pérégrinations de Bernard de Breydenbach. Le Caire, 1904.
- Lecerf (J.)**, Note sur la famille dans le monde arabe et islamique, Arabica, I (1956).
- Letts (F. S. A.)**, The Pilgrimage of Arnold of Harff, London, 1946.
- Little (Donald)**, An introduction to Mamlûk historiography, Wiesbaden, 1970.
- Lucas (A.)**, Ancient Egyptian materials and industries. London, 1962.
- Malipiéro (D.)**, Annali Veneti, Archivio storico italiano, VII, pt. 2. — (1843).
- Mardrus (J.C.)**, Le livre des mille et une nuits, t. I — VIII, Paris, 1965.
- Al-Masry (Youssef)**, Le drame sexuel de la femme dans l'Orient arabe, Paris, 1962.
- Massignon (Louis)**, La cité des Morts au Caire, BIFAO, I — VII (1957), pp. 25 — 79.
- Mayer (L.A.)** Mamlûk Costume, Geneva, 1952.
- Mayer**, Saracenic Heraldry, Oxford, 1933.
- Milliot (Louis)**, Introduction à l'étude du droit musulman, Paris, 1953.

Al-Munadjjid (Salâh ad-Dîn), Le Manuscrit arabe jusqu'au Xe s. de l'H., tom. I; Le Caire, 1960.

Nainar (S.M.H.), Arab geographer's Knowledge of Southern India, Madras, 1942.

Pauty (E.), Les Palais et les maisons d'époque musulmane au Caire, Le Caire, 1932.

Pauty, Les Hammâms du Caire, Le Caire, 1933.

Pearson (J.D.), Index Islamicus, Cambridge, England, 1962 — 1967.

Pesle, La femme musulmane dans le droit, la religion et les moeurs, Rabat, 1946.

Piloti (E.), L'Egypte au commencement du XVe siècle, d'après le traité d'Emmanuel Piloti de Crète, incipit 1420, avec une introduction et des notes par P.H. Dopp, Le Caire, 1950.

Popper (W.), Egypt and Syria under the Circassian sultans 1382 — 1468 A.D., systematic notes to Ibn Taghrîbirdî's chronicles of Egypt, t. XV — XV, Berkeley : University of California Press, 1955 — 1957.

Prost (Claude), Les revêtements céramiques dans les monuments musulmans de l'Egypte, le Caire, 1917.

Quatremère (M.), Histoire des sultans mamlouks de l'Egypte, t. I — II, Paris 1844 — 1845.

Répertoire chronologique d'épigraphie arabe. t. I —
XVI, Le Caire. .

Revan (E.), Mohamet et les origines de l'Islamisme,
Revue de deux-monds, décembre 1851.

Rice (D.S.), Blazons of Mamluk ladies, BSOAS, (1951)
pp. 573 — 578.

Sadeque (S.E.), Baybars the first of Egypt, Oxford,
1956.

Sauvaget (Jean), Noms et surnoms des mamelouks
JA. CCXXXVIII (1950) pp. 31 — 58.

Schefer (C.), Le Voyage d'Outremer de Jean Thénault,
Paris, 1864.

Schefer, Voyage du magnifique et très illustre cheva-
lier Domenico Trevisan, Paris 1864.

Schregle (Götz), Die sultanin von Ägypten : Sagarat
ad-Durr in der arabischen Geschichtsschrei-
bung und Literatur. Wiesbaden, 1961.

Serjeant (R.B.), Material for the history of Islamic
textiles, AI (1942 — 1945), IX, pp. 54 — 95;
X, pp. 71 — 104; XI, pp. 98 — 105; XIII —
XIV, pp. 75 — 117, XV — XVI, pp. 29 —
86.

Sourdel (D. et J.), Civilisation de l'Islam classique,
Paris, 1968.

- Strauss (E.),** A History of the Jews in Egypt under the rule of the Mamluks, t. I — II, Jerusalem 1944 — 1951.
- Tafur (Pero),** Travels and adventures, London, 1926.
- Uzzano (Giovanni di Antonio),** La pratica della mercatura, dans Pagnini, Della decima, IV, Lisbonne — Lucques, 1766.
- Wiet (G.),** Les Biographies du manhal sâfi, Le Caire, 1932.
- Wiet,** L'Historien Abûl Mahâsin, BIE, XII (1929 — 1930), pp. 89 — 105.
- Wiet,** Histoire des Mamlouks Circassiens, t. II, Le Caire, 1945.
- Wiet,** Journal d'un bourgeois du Caire, t. I — II, Paris, 1955 — 1960.
- Wiet,** Inscription Mobilière de l'Egypte musulmane; JA, CCXLVI (1958).
- Wiet,** Lampes et bouteilles en verre émaillé, Le Caire, 1929.
- Wiet,** Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum, Egypte, MIFAO, L II (II).
- Wiet,** Objets en cuivre, le Caire, 1932.
- William (O. Hayes),** The scepter of Egypt, Cambridge 1959.
- Al-Yâfi (Abdallah),** La condition privée de la femme

dans le droit de l'Islam (Thèse dactylographiée), Paris, 1925.

Zambaur (De.) Manuel de genealogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam, Hanouere, 1927.

Zampetti (Pietro), Vittore Carpaccio, Edizioni Alfieri Venezia, 1963.

Zetterstéen (K.V.), Beiträge zur Geschichte des Mamlûkensultane in den jahren 650 — 741 den Higre nach arabischen handschriften, Leiden, 1919.

صدر فى هذه السلسلة

- مصطفى كامل فى محكمة التاريخ،
د . عبد العظيم رمضان، ط ١، ١٩٨٧، ط ٢، ١٩٩٤ .
- على ماهر،
رشوان محمود جاب الله، ١٩٨٧ .
- ثورة يوليو والطبقة العاملة،
عبد السلام عبد الحليم عامر، ١٩٨٧ .
- التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة،
د . محمد نعمان جلال، ١٩٨٧ .
- غارات أوروبا على الشواطئ المصرية فى العصور الوسطى،
علية عبد السميع الجنزورى، ١٩٨٧ .
- هؤلاء الرجال من مصر جا ،
لمعى المطيعى، ١٩٨٧ .
- صلاح الدين الأيوبي،
د . عبد المنعم ماجد، ١٩٨٧ .
- رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية،
د . على بركات، ١٩٨٧ .
- صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل،
د . محمد أنيس، ١٩٨٧ .

- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية،
محمود قورى، ١٩٨٧.
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية،
سكرى الفاصى، ١٩٨٧.
- ١٢ - هدى شعراوى وعصر التنوير،
د . سيل راعب، ١٩٨٨.
- ١٣ - أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية،
د . عبدالعظيم رمضان، ط ١، ١٩٨٨، ط ٢، ١٩٩٤.
- ١٤ - مصر فى عصر الولاة، من الفتح العربى إلى قيام الدولة
الطولونية،
د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٨.
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الإسلامى،
د . على حسنى الحروبلى، ١٩٨٨.
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر: دراسة
عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢-١٩٥٢)،
د . حلمى أحمد شلى، ١٩٨٨.
- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى،
د . محمد نور فرحات، ١٩٨٨.
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية،
د . على السيد محمود، ١٩٨٨.
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين،
د . أحمد محمود صابون، ١٩٨٨.

- ٢٠ - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ . المراسلات السريّة بين سعد زغلول وعبدالرحمن فهمى .
د . محمد أنس ، ط ٢ ، ١٩٨٨ .
- ٢١ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ج١ ،
د . توفيق الطويل ، ١٩٨٨ .
- ٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر ،
جمال بدوى ، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ج٢ ، إمام التصوف فى مصر : الشعرانى ،
د . توفيق الطويل ، ١٩٨٨ .
- ٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩-١٩٣٦) ،
د . بحوى كامل ، ١٩٨٩ .
- ٢٥ - المجتمع الإسلامى والغرب ،
تأليف . هاملتون حب وهارولد بووس ،
ترجمه . د . أحمد عبد الرحمن مصطفى ، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د . سعد إسماعيل على ، ١٩٨٩ .
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ج١ ،
تأليف . ألفريد ح . بتلر ، ترجمة . محمد فريد أبو حديد ، ١٩٨٩ .
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ج٢ ،
تأليف . ألفريد ح . بتلر ، ترجمة . محمد فريد أبو حديد ، ١٩٨٩ .
- ٢٩ - مصر فى عهد الإخشيديين ،
د . سيده إسماعيل كاشف ، ١٩٨٩

- ٣٠ - الموظفون في مصر في عهد محمد علي ،
د . حلمى أحمد سلبى ، ١٩٨٠ .
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
سكرى العاضى ، ١٩٨٩ .
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج ٢ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩ .
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضاع الراهنة
ورؤية مستقبلية ،
د . خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩ .
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة
حتى عام ١٩١٢ ،
د . يونان لبيب ررق ، محمد مزين ، ١٩٩٠ .
- ٣٥ - أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبدالحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠ .
- ٣٦ - المجتمع الإسلامى والغرب ج ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين ، ترجمة : د. أحمد عبدالرحيم مصطفى ، ١٩٩٠ .
- ٣٧ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى
ربع قرن ،
تأليف : د . سليمان صالح ، ١٩٩٠ .
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ،
د . عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم ، ١٩٩٠ .
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤-١٨٢٧) ،
د . جميل عبيد ، ١٩٩٠ .

- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د . عبدالمعزم الدسوقي الحمصي ، ١٩٩٠ .
- ٤١ - محمد فريد . الموقف والأساسة ، رؤية عصرية ،
د . رفعت السعد ، ١٩٩١ .
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور ،
محمد شفيق عربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠ .
- ٤٣ - رحلة في عقول مصرية ،
إبراهيم عبد العرير ، ١٩٩٠ .
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر ، في العصر العثماني ،
د . محمد عفيفي ، ١٩٩١ .
- ٤٥ - الحروب الصليبية ج ١ ،
تألف : ولسم الصوري ، ترجمة وتقديم : د . حسن حبشي ، ١٩٩١
- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ : ١٩٥٧) ،
ترجمه : د . عبدالرؤف أحمد عمرو ، ١٩٩١ .
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصري الحديث ،
د . لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١ .
- ٤٨ - الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي ،
د . ريدة عطا ، ١٩٩١ .
- ٤٩ - العلاقات المصرية الإسرائيلية (١٩٤٨ - ١٩٧٩) ،
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢ .
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
د . سهراسكندر ، ١٩٩٣ .

- ٥١ - تاريخ المدارس في مصر الإسلامية ،
(أسحات البدوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، في
إبريل ١٩٩١) ،
أعدها للشر . د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٢ - مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر ،
د . إلهام محمد علي زهبي ، ١٩٩٢ .
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،
د . محمد كمال الدين عر الدين علي ، ١٩٩٢ .
- ٥٤ - الأقباط في مصر في العصر العثماني ،
د . محمد عفيفي ، ١٩٩٢
- ٥٥ - الحروب الصليبية ج٢ ،
تأليف . وليم الصوري ترجمة وتعليق : د . حس حسني ، ١٩٩٢ .
- ٥٦ - المجتمع الريفي في عصر محمد علي : دراسة عن إقليم المنوفية ،
د . حلمي أحمد سلمي ، ١٩٩٢ .
- ٥٧ - مصر الإسلامية وأهل الذمة ،
د . سيده إسماعيل كاشف ، ١٩٩٢ .
- ٥٨ - أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،
د . إبراهيم عبدالله المسلمي ، ١٩٩٣ .
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر ، من التمهيد إلى التأميم
(١٩٥٧-١٩٦١) ،
د . عبد السلام عبدالحليم عامر ، ١٩٩٣ .
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٣ .

- ٦١ - تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث،
د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٣ .
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج٣،
لمعى المطيعى، ١٩٩٣ .
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر الإسلامية،
تأليف: د. سيدة إسماعيل كاشف، جمال الدين سرور، وسعيد عبدالفتاح
عاشور، أعدها للنشر: د. عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣ .
- ٦٤ - مصر وحقوق الإنسان، بين الحقيقة والإفتراء: دراسة وثائقية،
د . محمد نعمان جلال، ١٩٩٣ .
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧-١٩١٧)،
د . سهام بشار، ١٩٩٣ .
- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي،
د . نريمان عبد الكريم أحمد، ١٩٩٣ .
- ٦٧ - مساعي السلام العربية الإسرائيلية: الأصول التاريخية،
(أبحاث الندرة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة،
بالإشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس، في إبريل
١٩٩٣)، أعدها للنشر د. عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣ .
- ٦٨ - الحروب الصليبية ج٣،
تأليف : وليم الصورى
ترجمة وتعليق : د . حسن حبشى، ١٩٩٣ .
- ٦٩ - نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية (١٨٨٦-١٩٥١)،
د . محمد أبو الإسعاد، ١٩٩٤ .

- ٧٠ - أهل التَّسْمَةِ فِي الْإِسْلَامِ ،
تأليف : أ.س. ترتون
ترجمة وتعليق : د. حسن حبشي ، ط ٢ ، ١٩٩٤ .
- ٧١ - مذكرات النوردة كليرن (١٩٣٤-١٩٤٦) ،
إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩٤ .
- ٧٢ - روية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي
(٣٥٨-٥٦٧هـ) ،
د . أمينة أحمد إمام ، ١٩٩٤ .
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،
د. رؤوف عباس حامد، ١٩٩٤ .
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، في العصر الفرعوني ،
د . سمير يحيى الحمال ، ١٩٩٤ .
- ٧٥ - أهل الذمة في مصر ، في العصر الفاطمي الأول ،
د . سلام شافعي محمود، ١٩٩٥ .
- ٧٦ - دور التعليم المصري في التضال الوطني (زمن الاحتلال
البريطاني) ،
د . سعيد إسماعيل علي ، ١٩٩٥ .
- ٧٧ - الحروب الصليبية ج ٤ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د . حسن حبشي ، ١٩٩٤ .
- ٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣-١٨٩٩) ،
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥ .
- ٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية في مصر ، في القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دي يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمي الجمال ، ١٩٩٥ .

- ٨٠ - قنّاة السويس والتنافس الاستعماري، (١٨٨٢-١٩٠٤)، د . السند حسين جلال، ١٩٩٥ .
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية من هزيمة بونيو إلى نصر أكتوبر، د . رمى ميخائيل، ١٩٩٥ .
- ٨٢ - مصر في فجر الإسلام، من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، د . سبدة إسماعيل كاشف، ط ٢، ١٩٩٤ .
- ٨٣ - مذكراتي في نصف قرن ج ١، أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٤ .
- ٨٤ - مذكراتي في نصف قرن ج ٢ - القسم الأول، أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٥ .
- ٨٥ - تاريخ الإذاعة المصرية: دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢)، د. حلمى أحمد شلى، ١٩٩٥ .
- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ - ١٩١٤)، د. أحمد الشريبي، ١٩٩٥ .
- ٨٧ - مذكرات اللورد كليرن، ج ٢، (١٩٣٤ - ١٩٤٦)، إعداد : تريفور إيفانز، ترجمة وتحفيق: د. عبدالرؤف أحمد عمرو ١٩٩٥ .
- ٨٨ - التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية، عبدالحميد نوفيق ركي، ١٩٩٥ .
- ٨٩ - تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني، د. عبدالحميد حامد سليمان، ١٩٩٥ .

- ٩٠ - معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية ،
د. ريمان عبدالكريم أحمد، ١٩٩٦ .
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف: بيتر مانسفيلد، ترجمة: عبد الحميد فهمي الجمال، ١٩٩٦ .
- ٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) ،
ج ٢، د. نجوى كامل، ١٩٩٦ .
- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصري (١٩٢٤ - ١٩٥٨) ،
د. نبيه بيومي عبدالله، ١٩٩٦ .
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
د. سهير إسكندر، ١٩٩٦ .
- ٩٥ - مصر وأفريقيا الجذور التاريخية للمشكلات الأفريقية المعاصرة
(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة
بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة
القاهرة) ،
إعداد أ. د. عبد العظيم رمضان
- ٩٦ - عبدالناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) ،
تأليف: مالكولم كير، ترجمة د. عبدالرؤوف أحمد عمرو.
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من
القرن التاسع عشر،
د. إيمان محمد عبد المنعم عامر.
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د. محمد سيد محمد.

٩٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى -
الرومانى) ج ٢ ،

د. سمير يحيى الجمال

١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر القديمة ،

أ. د. عبد العزيز صالح ، أ. د. جمال مختار ، أ. د. محمد

ابراهيم بكر ، أ. د. ابراهيم نصحي ،

أ. د. فاروق القاضى ، أعدها للنشر: أ. د. عبدالعظيم رمضان

١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،

اللواء/ مصطفى عبدالمجيد نصير ، اللواء/ عبدالمجيد كفاوى ،

اللواء/ سعد عبدالحفيظ ، السعير/ جمال منصور

١٠٢ - المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ -

١٩٥٢

د. تيسير أبو عرجة

١٠٣ - رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره

د. على بركات

١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢)

د. فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ - السلطة السياسية فى مصر وقضية الديموقراطية ١٨٠٥ -

١٩٨٧ .

د. أحمد فارس عبدالمعزم

١٠٦ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد (تاريخ الحركة الوطنية

فى ربع قرن .

د. سليمان صائح

- ١٠٧ - الأصولية الإسلامية .
تأليف: دليب هيرو: ترجمة: عبدالحميد فهمي الجمال .
- ١٠٨ - مصر للمصريين ج ٤ .
سليم النقاش
- ١٠٩ - مصر للمصريين ج ٥ .
سليم النقاش
- ١١٠ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ج ١ .
د. البيومي اسماعيل الشربيني .
- ١١١ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ج ١ . ٢ .
د. البيومي إسماعيل الشربيني .
- ١١٢ - إسماعيل باشا صدقي
د. محمد محمد الجوادى .
- ١١٣ - الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري) .
د. عز الدين إسماعيل .
- ١١٤ - دراسات في تاريخ مصر الاجتماعى
تأليف أحمد رشدى صالح
- ١١٥ - مذكراتى في نصف قرن ج ٣ .
أحمد شعيق باشا .
- ١١٦ - أديب اسحق (عاشق الحرية)
علاء الدين وحيد
- ١١٧ - تاريخ القضاء في مصر العثمانية
عبد الرزاق إبراهيم عيسى (١٥١٧ - ١٧٩٨)

- ١١٨ - النظم المالية في مصر والشام
د. البيومي اسماعيل الشريبى
- ١١٩ - النقابات في مصر الرومانية
حسين محمد أحمد يوسف
- ١٢٠ - يوميات من التاريخ المصرى الحديث
لويس جرجس
- ١٢١ - الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ - ١٩٥٤)
د. محمد عبد الحميد الحناوى
- ١٢٢ - مصر للمصريين ج-٦
سليم خليل النقاش
- ١٢٣ - السيد أحمد البدوى
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
- ١٢٤ - العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن
د. محمد نعمان جلال
- ١٢٥ - مصر للمصريين ج-٧
سلم خليل النقاش
- ١٢٦ - مصر للمصريين ج-٨
سليم خليل النقاش
- ١٢٧ - مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ - ١٩٥٨)،
ابراهيم محمد محمد ابراهيم .
- ١٢٨ - معارك صحفية،
بقلم/ جمال بدوى.

١٢٩ - الدين العام (وأثره في تطور الاقتصاد المصري)
(١٨٧٦-١٩٤٣).

د. يحيى محمد محمود

١٣٠ - تاريخ نقابات الفنانين في مصر (١٩٨٧-١٩٩٧)
سمير فريد.

١٣١ - الولايات المتحدة وثورة يولية ١٩٥٢ م
ترجمة/ د. عبدالرؤف أحمد عمر.

١٣٢ - دار المندوب السامي في مصر جـ ١ . د. ماجدة محمد حمود.

١٣٣ - دار المندوب السامي في مصر جـ ٢ . د. ماجدة محمد حمود.

١٣٤ - الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثمانى
للدانندلى.

بقلم/ عزت حسن أفندى الدانندلى

ترجمة/ جمال سعيد عبد الغنى.

١٣٥ - اليهود في مصر المملوكية
(في ضوء وثائق الجيزة)

(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م) د. محاسن محمد الوقاد

١٣٦ - أوراق يوسف صديق

تقديم/ أ. د. عبد العظيم رمضان

١٣٧ - تجار التوابل في مصر في العصر المملوكى

د. محمد عبد الغنى الأشقر

١٣٨ - الإخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والإرهاب في مصر

السيد يوسف

- ١٣٩ - موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين
بقلم محمد قابيل
- ١٤٠ - سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن
التاسع عشر ١٢٢٦ - ١٢٦٥هـ / ١٨١١ - ١٨٤٨ م.
طارق عبد العاطى غنيم بيومى
- ١٤١ - وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك.
لطفى أحمد نصار
- ١٤٢ - مذكراتى فى نصف قرن ج-٣
أحمد شفيق باشا ط٢، ١٩٩٩.
- ١٤٣ - دبلوماسية البطالة فى القرنين الثانى والأول ق . م
د. منيرة محمد الهمشرى
- ١٤٤ - كشوف مصر الافريقية فى عهد الخديوى اسماعيل
د. عبدالعليم خلاف
- ١٤٥ - النظام الادارى والاقتصادى فى مصر فى عهد دقلديانوس
(٢٨٤ - ٣٠٥ م)
د. منيرة محمد الهمشرى
- ١٤٦ - المرأة فى مصر المملوكية
د. أحمد عبدالرازق

فهرس

صفحة

| | |
|-----|-----------------------------------|
| ٩ | مقدمة |
| | الفصل الأول : |
| ١٣ | مكانة المرأة في المجتمع |
| | الفصل الثاني : |
| ٢٩ | دور المرأة في الحياة العامة |
| | الفصل الثالث : |
| ٥١ | سلطان المرأة وتفوذها |
| | الفصل الرابع : |
| ٦٣ | الزواج |
| | الفصل الخامس : |
| ٩٩ | الأسرة |
| | الفصل السادس : |
| ١٤١ | الزينة |
| ٢٠٣ | ثبت المصادر والمراجع |



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Beit al-Hikma al-Alexandriya

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٧٦٠٧/١٩٩٩

I.S B N 977 - 01 - 6132 - 2

هذا الكتاب المهم تناول مكانة المرأة فى العصر المملوكى ، ودورها فى الحياة العامة ، وبين مدى ما وصل اليه سلطانها ونفوذها ، وتطرق الى موضوع الزواج ، والأسرة ، وزينة المرأة ، كل ذلك فى أسلوب علمى جزل وسهل ، يهين للقارئ التغلغل الى أحشاء المجتمع المملوكى فى ذلك العصر بيسر واستمتاع .

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com